في مدرسة الحرية

أمين سلامة

في مدرسة الحرية

تأليف
أمين سلامة

هنـــداوي

في مدرسة الحرية

أمين سلامة

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ١ ٣٤٦٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٦٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ أمين سلامة.

المحتويات

تمهيد	٧
المُخبِرون	٩
التذمُّر	١١
الحراسة	١٥
اختفاء البطاطين	١٧
الخيوط الأولى	٢١
المطاردة	٢٥
المُخبِرون	٢٩
لغزٌ جديد	٣٣
ابحثوا عن نلسون	٣٥
إلى المدينة	٣٩
صمت	٤٣
الحقيقة أخيرًا	٤٥
المهرِّبون	٥١
سِرُّ جمعة	٥٣
نلسون والأفعى	٥٧
صراعٌ مع النمر	٦١
مارك يعثُر على كهف	٦٥
اكتشاف اللغز	٦٧

عودة إلى الكهف	٧١
زومبي المهرِّب	٧٥
كيف يُهرِّبون	٧٩
معسكر نهاية الأسبوع	٨١
بيترو وسمكة القرش	٨٥
مراقبة في الليل	٨٩
نلسون يُهرَع لنجدة مارك	٩٣
مارك سجين الكهف	٩٧
إغارة الكشَّافة	١٠١
مارك يحاول الهرب	١٠٣
القبض على المهرِّبين	١٠٥
كن مستعدًّا	١٠٩

تمهيد

تنجانيقا منطقةٌ واسعة تقع بشرق أفريقيا يسكنها قومٌ عُرفوا بالشجاعة والصدق والذكاء. وهم فوق ذلك متمسِّكون بتعاليم دينهم، لا يقبلون الضَّيم. ولا يُضمِرون شرًّا لمخلوق، ولا يفكِّرون في الأذى. بيد أنه إذا وقَع عُدوانٌ عليهم، انبرَوا إلى المعتدي، وردُّوا له الصاع صاعَين، شأن جميع الأفريقيين الأحرار.

أما عاصمة هذه المنطقة الهادئة فهي دار السلام، ثغرٌ جميل على المحيط الهندي، تَرِد إليه السفن من مختلف بقاع العالم، حاملةً ما تحتاج إليه تلك البلادُ من منسوجاتٍ وأدواتٍ وسياراتٍ وغير ذلك، وتُغادِره محملةً بالعاج والأبنوس والمطَّاط والذهب، وما إلى ذلك من الخيرات الطبيعية التي حبا الله بها أرض أولئك القوم الطيبين.

وعلى مسافةٍ غيرِ بعيدة من دار السلام تقع قرية «دابانجا»، في حِضْن تلٍّ كثير الأحراج والشُّجيرات، يهُب عليه النسيم عليلًا فيلطِّف حرارة تلك المنطقة الاستوائية، ويجعل منها مصيفًا معتدل الحرارة رغم بُعدها عن الشاطئ؛ ولذلك أنشأَت بها الحكومة مدرسةً ثانويةً داخلية أطلَقَت عليها اسم «مدرسة الحرية»، اختارت لها أساتذةً أكْفاء، وزوَّدَتها بسيارة للرحلات والنزهات. وكان سائق السيارة رجلًا أجنبيًّا لفحَت الشمس بشرتَه، فأكسبَتْها سُمرةً تكاد تتفق وبشرةَ القوم هناك، غير أنه لم يتطبَّع بطباعهم، ولم يتخلَّق بأخلاقهم، ولم تؤثِّر فيه طبيعة البيئة، فاستغل طيبة سرائر من يعيش بينهم بدهائه وفكره وخداعه ورِيائه. أما ناظر المدرسة ومعلِّموها فكانوا من الوطنيين الموهوبين.

كان موقع المدرسة رائعًا في منطقةٍ صحية على جانب التل، تُطِل على غابةٍ من الشجيرات الكثيفة.

المُخبِرون

التذمُّر

دق ناقوس الطعام بمدرسة الحرية، فاصطَف التلاميذ في الفِناء، ثم ساروا إلى قاعة الطعام، وهي بهو فسيح ممتد الأطراف. وما هي إلا لحظةٌ حتى كان صليل الملاعق والأطباق المعدنية وأوعية الحَسَاء يملأ الجو عندما جلَس الطلبة إلى الموائد وشرعوا يقتسمون الطعام. وأخذ صخَب حديثهم يعلو بعد ذلك، ولكن الصمت سادَهم فجأةً عندما نهض فتًى يافعٌ عريض المَنكِبَين، وتوسَّط القاعة وصاح يأمرهم بالسكون، ثم بدأ يُصَلي. وما كاد ينتهي من صلاته حتى عاد الصخَب من جديد، وشَرَع الأولاد يتناولون ما أمامهم من طعام.

جلس «علي»، ذلك الفتى الطويل القامة، رئيس روَّاد الفصول بهذه المدرسة، إلى مائدته، وأخذ نصيبه من الطعام وبدأ يأكل. ولَمَّا التفَت إلى جاره «نلسون» رأى على وجهه علاماتِ التذمُّر، وقد أخذ يُبدي ملاحظتَه على الطعام، قائلا بصوتٍ مرتفع ينم عن التبرُّم البالغ: «ما هذا؟ مرةً أخرى يُقدَّم إلينا اليوم فول، ومع هذا فإن كميَّته قليلةٌ جدًّا، لا تكاد تُشبِع طفلًا صغيرًا.»

حدَجَه عليٌّ بنظرةٍ نكراء، وقال: «لا بُد أن مَعدتَك ضخمة كالقِربة، يا نلسون.»

فردَّ عليه نلسون بقوله: «حسَن! إذا كان الأمر كما تقول، ومَعِدتي كما تصف، فأعطني نصفَ ما أمامك من الفول.» وبدا التجهُّم يرتسم على وجهه المكتنز السمين.

فأجاب علي: «ولكني لم أقُل إن مَعِدتي أصغر من مَعدتِك.» وكسَر لقمةً من رغيفه وغمَسَها في الفول، ثم أردف يقول: «انتظر حتى آكل أنا كفايتي، ثم أعطيك ما يتبقَّى.»

وإلى المائدة المجاورة جلس محمد، وهو تلميذٌ صومالي، كان قصير القامة، أسمر البشرة، حاد التقاطيع، وقد بدت على وجهه أمارات التذمُّر من قلة الطعام، فأخذ يشكو قائلًا لمارك الجالس عند الطرف الآخر من المائدة: «لقد ضقتُ ذَرْعًا بهذا الفول. خذ طعامي فلستُ أريده.» ثم أعطاه صَحْفته.

فشكَره مارك وقد التمعَت عيناه سرورًا، وقال: «الآن، وقد حصَلتُ على نصيبك من الفول، علاوةً على نصيبي منه، يمكنني أن أقول حقًّا، إني قد نلتُ كفايتي. الغريب، في هذه الأيام، أن الطعام يقلُّ يومًا بعد يوم! إنه يتناقَص بشكلٍ واضح.»

والتفت إليه تلميذٌ آخر، وقال: «يبدو أنه سوف يتناقص ويتناقص، حتى لا نجد آخر الأمر ما نأكله.»

فعَلَا الضحك بين التلاميذ، وأخذ كل فردٍ يعلِّق على قلة الطعام؛ إذ جعلوا منه موضوعًا للدُّعابة والنكات، حتى رنَّ في القاعة صوتٌ يعرفه الجميع، يقول: «ما كل هذه الثرثَرة والضجَّة؟»

نظر الأولاد حولهم، فإذا بالأستاذ جون، مدرس الرياضة، يقف خلفهم؛ فقد خرج من حجرته يستطلع الأمر عندما سمع ضجةً تتعالى من المطعَم. لم يكن طويل القامة، كان في الثلاثين من عمره، ولكنه كان بالغ القوة رغم نحافته، يقوم بتدريس الرياضة، ويُشرِف على كرة القدم بالمدرسة، ويرأس فرقة الكشَّافة. ولمَّا كان مرحًا حاضر النكتة فقد أحبَّه التلاميذ والتفُّوا حوله. وواصل الأستاذ حديثه فقال: «أتأكلون أم تهرِّجون؟ ... لقد علا ضجيجُكم بصورةٍ مُفزعة.»

فقال تلميذ: «عذرًا يا أستاذي ... لقد كانت ضجَّتُنا بسبب الطعام؛ فلَم يأتِنا منه اليومَ ما يكفي.»

فقال الأستاذ جون: «ليس هذا بالأمر الجديد. هذا ما تقولونه دائمًا.»

ونهض محمد وقال: «ولكن كمية الطعام التي جاءَتنا اليوم تقلُّ كثيرًا عما اعتَدناه من قبلُ، كما أنه رديءٌ للغاية.»

ثم قام تلميذٌ آخر، وقال: «إننا يا أستاذي تلاميذُ في مدرسةٍ ثانوية، ولسنا أطفالًا في مدارس الروضة حتى تُقدَّم لنا مثل هذه الكمية الضئيلة!»

فتساءل الأستاذ جون: «أحقًّا يا أولادي، أن كمية الطعام قليلةٌ إلى هذا الحد، وأن طَهوَها رديء؟»

ما كاد الأستاذ جون يُلقي بهذا السؤال حتى أجاب كافة الطلبة بصوتٍ واحد يقولون: «نعم يا أستاذ جون؛ فالكمية قليلةٌ جدًّا، والطهو رديء للغاية.»

دوَّت القاعة بهذه العبارة؛ إذ صدَرَت من جميع الموائد في وقتٍ واحد، ورفع التلاميذ أيديَهم وفيها الصحاف خاوية.

فقال الأستاذ جون: «إذن يجب أن أتحرَّى هذا الأمر.» وذهب إلى مائدة الرائد وسأله: «ما هذا الذي أسمَعُه عن قلة الطعام يا علي؟»

كان عليٌّ يأكل، وفي فمه لقمة خبز، فتبلَّغها بسرعة ونهض واقفًا، وقال في أدبٍ جم: «كل ما سمِعتَه حق، يا أستاذي! ... إن الطعام يقلُّ يومًا بعد يوم. لقد ظل يتناقَص طَوال هذا الأسبوع بدرجةٍ ملحوظة حتى غدا ما يصلنا منه لا يكفي ثُلثَ عدد التلاميذ. وكانوا يصبرون في الأيام الماضية على مضَض، حتى بلغ النقص حدًّا لا يُمكِن السكوتُ عليه، فجاهَروا بالشكوى والتذمُّر.»

وقف الأستاذ جون يفكِّر بضع لحظات، وقد قطَّب، وأخذ يدقُّ الأرض بقدمه في حركةٍ عصبية، ثم التفَت إلى عليٍّ وقال له: «بمجرَّد أن تفرغَ من طعامك، تعالَ إلى حجرتي لنذهَب معًا، فنرى الطاهي وأمين المخزن.»

كان بعض التلاميذ قد فرغوا فعلًا من طعامهم، وخرجوا ليغسلوا صِحافَهم في أحواض الغسيل. وكان الصغار منهم يغَنُّون في أثناء مسيرهم، ويَنقُرون بالملاعق على الصِّحاف على وَقْع النَّغم. أما عليٌّ رئيس الروَّاد، فما إن انتهى من الطعام حتى ذهب من فَوره إلى حجرة الأستاذ جون.

والتقى الأستاذ جون وعليٌّ بالطاهي، فلما سألاه عن كمية الطعام أخبرَهما بأنه طبخ كل ما تسلَّمه من الطعام، ووزَّعه بالتساوي على الموائد. وكان هذا الطاهي في خدمة المدرسة منذ عشر سنواتٍ معروفًا بالأمانة، فلم يسَع الأستاذَ جون إلا أن صدَّق قوله، ثم قام بعد ذلك بجرد الأطعمة الموجودة بالمخزن، فلم يجد بها نُقصانًا. ورأى أن كميات الأطعمة كانت تُصرَف كاملةً كل يومٍ إلى الطاهي، وتُسلَّم إليه ليلًا، فيضعُها بالمطبخ، ويُغلِقه حتى اليوم التالي.

حار الأستاذ جون في أمر ذلك الطعام. أيتهِم الطاهي بعد هذه السنوات العشر، والذي كان خلالها مثال الأمانة والصدق؟ أم يتهِم أمين المخزن وقد ثبَت قيامه بالعمل على خير وجه؟ وأخيرًا قال علي: «أليس من المحتمل، يا أستاذي، أن يكون هناك شخصٌ ما يقوم بسرقة الطعام ليلًا من المطبخ، والطاهي لا يستطيع اكتشاف السرقة في الصباح؛ لأنه لا يدري شيئًا عن مقدارها ولا عن وزنها؟»

استَصوَب الأستاذ جون هذه الفكرة، فقال: «هذا أمرٌ مُحتمَل يا علي! من الممكن جدًّا أن يتسلَّل امرؤٌ إلى المطبخ ليلًا، والتلاميذ نيام، ولا أحد يرقُد بجوار المطبخ، ولا تُوجد أنوارٌ بالفِناء بين حُجرات النوم والمطبخ. إذن، فأنا أعرف ماذا نفعل! يجب أن يقوم رُوَّاد

الفصول بحراسة المطبخ ليلًا، بالتناوُب فيما بينهم. كل رائدٍ يبيتُ ليلةً هناك، حتى إذا تسلَّل اللص إلى المطبخ قبَض عليه، أو صرَخ، فيُسرِع الجميع إلى مساعدته.»

فقال علي: «الرأي كما ذكَرتَ، يا أستاذي. سأنصرف الآن فأدبِّر هذا الأمر مع بقية الروَّاد.»

عقد عليٌّ اجتماعًا لروَّاد الفصول، وأخبرَهُم بما اقتَرحَه الأستاذ جون، ثم قال: «ستنام في المطبخ هذه الليلة، يا نلسون. فإذا جاء السارق سمعتَه. وعندئذٍ انفُخ في صَفَّارتك تجدنا جميعًا إلى جانبك.»

فأجاب نلسون: «سمعًا وطاعة، أيها الرئيس.» ثم أضاف، مازحًا: «إذن فسأنال حَفنةً كبيرة من الفول السوداني نظير سهري في هذه الليلة، وأجرًا لقيامي بحراسة المطبخ.»

فقال علي: «كيف تجرؤ على هذا القول؟» وهزَّ إِصبَعَه مهدِّدًا وهو يقول: «ألا تعلم أن الروَّاد لا يتقاضَون أجرًا؟»

الحراسة

دخل الأستاذ جون على الأستاذ بون ناظر المدرسة، وقد جلس على مقعدٍ وثير يدخِّن لِفافة تبغ ... وكان رجلًا نحيفًا متوِّسط القامة طَلْق المُحيَّا. وبعد أن حيَّاه الأستاذ جون أخبَره بقِصَّة نقص الطعام وتذمُّر التلاميذ من قلة ما يُقدَّم لهم، ومن سوء طَهوه.

كان الناظر يُصغي إلى الأستاذ جون باهتمام، فلمَّا فرغ من حديثه تكلَّم الناظر، وقال: «هذه أخبارٌ سيئة. ولا بد أن يكون السارق من داخل المدرسة؛ لأننا في بُقعةٍ منعزلة عن الأهلِين.»

والحقيقة أن مدرسة الحرية كانت بمَعزِل عن العمران — حيث تقوم في وادٍ فسيح يقع بين تلال أوكانجالا ... ولم تكُن هناك إلا قريةٌ صغيرة على مسافةٍ غيرِ بعيدة تتناثَر فيها عدة بيوت هنا وهناك — وفي الخلف غابةٌ كثيفة ... كما كان يُحيط بالمدرسة عدة ممراتٍ ضيقة، ثم طريقٌ واحد يصل بينها وبين مدينةٍ صغيرة على بُعدٍ ... غير قليل.

فقال الأستاذ جون للناظر: «قد تكون على حق، يا سيدي، ولكني أعتقد أنه شخصٌ من القرية التي في طَرَف الوادي.»

– «ربما كان الأمرُ كما ذكَرْت، يا أستاذ جون. وعلى أية حالٍ سنرى ماذا يحدُث في هذه الليلة.»

جمع نلسون بطاطينه من حجرة النوم ليبيت في المطبخ تلك الليلة، وقال لزملائه وهو ذاهب: «ها أنا ذا أستَعِد للنوم في المطبخ، ولكني لن أنام، بل سأسهر الليل بطوله، كي أستطيع أن أقبض على اللص متلبسًا بالجريمة.»

فقال جمعة ساخرًا، وقد جلس على سريره المجاور لسرير نلسون، وكان يخلع ملابسه تأهُّبًا للنوم: «هذا يسيرٌ عليك ... لأنه يجبُ أن تقبض على نفسك، يا نلسون.» فتناول نلسون وسادةً وقذَف بها جمعة، فأصابَتْه في بطنه، وقال: «الأجدر بك، يا جمعة، أن تقبَع هنا في

سريرك، إلا إذا كنتَ تريد أن أقبض عليك. إننا جميعًا نعلم أنكَ كنتَ تحوم حول المطبخ.» ثم أشار إلى بطن جمعة، وقال: «انظروا إلى بطنه الضخم، أيها الرفاق. إنه لا يكفيه مِرجلٌ من الفول!»

عندئذٍ صاح الأولاد جميعًا بصوتٍ واحد، قائلين: «عُد إلينا بشيء من الفول السوداني، يا نلسون.» وكان معظمهم قد خلَعوا ملابسهم، ووقَفوا حوله في أردية النوم.

وجاء أحد الأولاد بمِكنَسة وقدَّمها إلى نلسون، وقال له: «هاك سلاحًا، لا شك أنك ستُجيد استعمالَه في مقدرة ومهارة!»

فرَدَّ عليه نلسون بقوله: «عندي سلاحٌ يفوق هذا.» ثم أخرج سكينًا كبيرة كان قد خبأها تحت البطاطين.

وقال تلميذٌ آخر: «أتعشَّم أن تقتُل كثيرًا من الفيران؛ فربما كانت هي التي تسرق الطعام.»

وصاح جمعة خلف نلسون وهو يسير وسط ضحك الغلمان وصياحهم: «نلسون! يا قاتل الجرذان!»

اختفاء البطاطين

اعتزَم نلسون أن يسهر تلك الليلة في المطبخ، بيد أن النعاس غلبه فنام ملء جفنَيه. لقد كانت ليلةً هادئة لم يقُضَّ مَضجعَه فيها أحد، ولم يأتِ اللص فيُقلِق راحتَه وينغِّص عليه نومتَه. وعندما أشرقَت تباشير الصباح استيقظ من نومه، فاستحَم، وارتدى ملابسه، وتناول طعام الإفطار كعادته، وذهب إلى فصله. ومضى اليوم المدرسي كالعادة، حتى انتصف النهار وتناول التلاميذ غذاءهم، ثم ذهبوا إلى حجرات النوم ليستريحوا ويتجاذبوا أطراف الحديث.

ذهب محمدٌ الصومالي ليستلقي على سريره، ولكنه ما إن بلغَه حتى صاح غاضبًا: «ربَّاه! مَن الذي أخذ بطانيَّتي؟»

ثم صاح حسين يتساءل في استنكار: «أتعني من الذي أخذ بطانيتي أنا؟ — لقد اختفت هي الأخرى.»

وعندئذٍ هُرع كل تلميذ إلى سريره يبحث عن بطانيَّته، وكلٌّ منهم يتوقَّع ضَياعَها. وعلَت الأصوات، وسَرَت موجةٌ من الذعر والغضب بين التلاميذ ... لقد اختفت عدة بطاطين. وصاح كثيرٌ منهم يتساءل عن بطانيَّته ... ويريد أن يطلب الشرطة، واندفَع كل واحدٍ من الذين فقَدوا بطاطينهم في هَرْج يبحث بجنون في بقية الأسرَّة، ويُمسِك بكل بطانيةٍ يفحصها علَّه يجد عليها رقمه الخاص أو علامته، ولكن دون جَدْوى. وسرعانَ ما تناثَرَت الوسائد والبطاطين والملاءات في كل نواحي حجرات النوم، وساد الهَرْج، وقامت المشاحنات بين التلاميذ. وأخذوا يتنازعون على البطاطين الباقية ... كلٌّ يدَّعي أنها له. وعندما ساد الهدوء بينهم مرةً أخرى ... تبيَّن أن ستَّ بطانياتٍ قد فُقدَت ... فجرى مارك، رائد حجرات النوم، إلى الأستاذ جون يُبلغُه بما حدث، فوجده بحجرته مستلقيًا على مقعدٍ وثير، يقرأ كتابًا، فقال له: «أتأذن لي بالدخول، يا سيدي؟ إن الأمر جِدُّ هام.» ووقف خارج الباب ينتظر أمر أستاذه.

قال الأستاذ جون: «ادخل. ماذا وراءك؟ هل اختفى الطعام كله؟» ثم وضَع الكتاب جانبًا، وتفرَّس في وجه مارك علَّه يَستشِف منه حقيقة الأمر.

– «ليس الطعام هو الذي سُرق اليوم، يا سيدي. إنها البطاطين ... سُرقَت ستُّ بطانياتٍ من فوق أسرَّتنا ونحن بالفصول.»

وثَب الأستاذ جون من فوق كُرسيِّه وقد تملَّكَته الدهشة، وحملَق في تلميذه، وقال: «ماذا تقول، يا مارك؟ سُرقَت البطاطين؟ هذا أمرٌ لا يُحتمَل. إنها جُرأةٌ بالغة. تبًّا لذلك الوغد الدنيء! يسرق الفول بالأمس، ثم يعودُ اليومَ فيسرقُ ست بطانياتٍ من حجرات النوم! إن الأمور تتطور من سيئ إلى أسوأ. تعالَ معي إلى الناظر.»

وبينما هما في طريقهما إلى مكتب الناظر، قابلا عليًّا وقد وقف يُنصِت إلى شكوى الأولاد الذين سُرقَت بطانيَّاتهم، فأخذه الأستاذ جون معه.

كان الأستاذ بون جالسًا في حجرته، مشغولًا بكتابة خطاب، وفي فمه لِفافة تبغ، فلما استأذن الثلاثة في الدخول، وضَع القلم، وأخذ يُصغي إلى قصة مارك عن سرقة البطاطين، فصمَت بُرهةً والدماء تغلي في عُروقه؛ إذ أحَسَّ بالهزيمة أمام لصٍّ جريءٍ مجهول، ثم قال: «لا بُد أنها سُرقَت وأنتم جميعًا بالفصول. من ذلك اللص الحقير؟ ... اذهب الآن يا علي، ودُق الجرس لاستدعاء التلاميذ، وليقف كل واحد، في الحال، بجانب سريره. وأنت يا أستاذ جون ... فلتأتِ معي.»

لم تَمضِ غير دقيقتَين على دَق الجرس حتى كان كل تلميذٍ في حجرة نومه، ثم بدأ بون التفتيش، وقال: «أرجو يا أستاذ جون، ألا يترك أي تلميذٍ مكانه حتى أنتهيَ من عملي. سأبحث جيدًا في صندوق كل واحدٍ منهم.»

أتَم الأستاذ بون دورتَه في هدوء، ففتَّش أمتعة كل طالب، وفحَص كل بطانية بعناية، ثم قال: «لا أثر للبطاطين المختفية هنا. يجب أن نبحَث بدقة. سننظر في كل مكانٍ يُحتمَل أن تكون مخبأةً فيها. لن نترك بقعةً حتى نبحث فيها.» ثم التفَت إلى علي، وقال: «يجب أن يبقى الأولاد في حجرات النوم، يا علي!»

ظل الناظر والأستاذ جون يفتِّشان في كل المواضع. في أَصوِنة حُجرات الدراسة، وفي القماطر (الأدراج)، وخلف الأبواب، وفي المعمل والمطبخ ومخزن المؤن، وحتى في حجرات المدرِّسين ومكتب الإدارة. بَيْد أنهما لم يعثُرا للبطاطين على أثَر. وبعد الانتهاء من التفتيش، قال الأستاذ جون: «ما من شكٍّ في أن السارق من خارج المدرسة.»

فأجاب الناظر: «نعم. يُخيَّل إليَّ أنك على حق. ومع ذلك، فلا فائدة من التحدُّث في شيء لا جدوى منه. دُقَّ جرس الدخول إلى حُجرات الدراسة.»

عندما سمع الأولاد صوتَ الجرَس، غادروا حُجرات النوم، وشُعورٌ بالاضطراب ينتابهم، وقد أخذوا يتناقشون في أمر السرقة، وراح بعضهم يتكهَّن بما سيُسرق بعد ذلك. أما الذين سُرقَت بطانيَّاتهم، فقد غمَرهم السرور لضَياع نصف ساعةٍ من الحصة.

الخيوط الأولى

كانت كمية الطعام كبيرةً في هذا اليوم، في كلٍّ من وجبَتَي الظهر والمساء. لقد أتت حراسة نلسون بنتائجَ طيبة، فأمر الناظر رائدًا آخر بأن يبيت في المطبخ هذه الليلة؛ فلقد وضَح له الآن أن لصًّا غريبًا عن المدرسة كان يتسلَّل إلى المطبخ ليلًا، والكل نيام، فيسرق الطعام دون أن يشعُر به أحد، غير أن مبيت نلسون بالمطبخ لم يمكِّنه من السرقة في هذه المرة.

بعد أن فحص الناظر طعام العَشاء بنفسه، وخرج ليتمشى في الخلواتِ والشمسُ على وشك المغيب، كي يطلق العِنان لتفكيره في أمر السرقة. وبينما هو عائد من التل يخترق الشجيرات الواقعة خلف حجرات النوم، تعثَّر في شيءٍ طري وكاد يسقُط على الأرض، فانحنَى ليرى ذلك الشيء، فإذا به بطانية ... استطاع أن يراها بوضوح، حتى في ذلك الضوء الخافت. كانت جديدةً ونظيفة، مما يقطع بأنها لم تكن في هذا المكان منذ وقتٍ طويل، فأيقن أنها لا بد وقد سقطَت من شخصٍ كان في عجَلة من أمره، فوقف يتلفَّت حوالَيه، حتى يحدِّد موضع البطانية تمامًا، وليستطيع أن يتذكَّره إذا لزم الأمر، ثم اتجه فورًا إلى مكتبه، واستدعى عليًّا رئيس الروَّاد، وأحضر مشعلًا حملَه علي، وعادا معًا إلى حيث تُوجَد البطانية.

– «أليست هذه إحدى بطاطين المدرسة يا علي؟»

– «نعم، يا سيدي! لا شك في هذا. إنني على يقينٍ من أنها بطانية محمد.»

– «حسَنٌ جدًّا. إنك كشَّاف، يا علي! تطلَّع حوالَيك، علَّك تجد أية آثارٍ لأقدام.»

طَفِق عليٌّ يبحث كما أمره الناظر، على ضوء المشعل. وما كاد يبتعد قليلًا حتى نادى الأستاذ بون، فلما وصل إليه، قال علي: «هنا، يا سيدي، آثارٌ لحذاءٍ من المطَّاط تصل إلى مكان البطانية، حذاءٍ ذي دوائرَ صغيرة في نعله.»

– «هذا عملٌ رائع، يا علي! وانظر في هذه الجهة أيضًا، بعيدًا عن البطانية.»

وسرعان ما اكتشف عليٌّ آثار أقدامٍ أخرى لنفس الحذاء، تتجه بعيدًا عن البطانية.

فقال الناظر: «إننا نتقدم في البحث بخُطًى واسعة. لا مراء في أن لصَّنا يلبس حذاءً ذا نعلٍ من المطَّاط به دوائرُ صغيرة، وقد كان في عجَلة من أمره، فلما سقطَت منه بطانية، لم يتوقف لأخذها؛ لأن الحِمْل كان عليه ثقيلًا ... غير أنه يُحيِّرني سببُ سلوكه هذا الطريق؛ فلو استمَر في سيره خلال هذه الشجيرات، فإلى أين يقصد؟»

فقال علي: «يخرج من الحرج إلى الطريق المؤدي إلى القرية، يا سيدي!»

قال: «هذا محتمَلٌ جدًّا، يا علي! ويبدو أن لصَّنا قد أتى من هناك. أعتقِد أن أقصر طريقٍ من حُجرات النوم إلى القرية هو خلال هذه الشُّجَيرات.»

– «نعم، يا سيدي!»

فقال الناظر: «حسبُنا هذا الآن! يُخيَّل إليَّ أننا لن نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك في هذه الليلة.»

وعندما رجَعا إلى المدرسة دخل الناظر حُجرتَه ومعه علي؛ حيث جلَسا يستريحان قليلًا، فقال الناظر: «أريد منك أمرَين، يا علي!»

فأجاب الرائد: «مُر، يا سيدي، تَجِدْني أطوعَ إليك من بنانك.»

قال: «أريد أن تعرف بطانية من هذه، وأن تُحاوِل معرفةَ ما إذا كان بالمدرسة مَن يلبَس حذاءً يُشبِه الحذاء الذي رأينا أثَره الليلة. فإن عثَرتَ عليه فقِسْ طُول نعل الحذاء وعَرْضه. افعَل هذا بتكتُّمٍ شديد، ولا تُطلِع أحدًا قَطُّ على مهمَّتك، ولكن كن حَذِرًا يا علي.»

– «سيمضي كل شيء كما أمرت، يا سيدي! وسأبذل كل ما في وسعي.»

انصرف عليٌّ راجعًا إلى حُجرة نومه دون أن يعلم أحدٌ أين كان، أو يدري عن خطَّته شيئًا. وبعد أن أوى الجميع إلى فِراشهم، واستغرقوا في نومٍ عميق، خرج الأستاذ بون وذهب إلى المكان الذي اكتشَف به أثَر الحذاء المطاط، وشَفَّ رسمًا على الورق لآثار الأقدام، ثم احتفظ بالرسم في مكتبه.

وفي اليوم التالي أرسل الناظر الأستاذ جون إلى القرية؛ حيث كان القوم يعرفونه حق المعرفة، وكانت حُجة الأستاذ جون البحث عن عاملٍ للمدرسة. أما الغرض الحقيقي من طوافه بالقرية فهو البحث عن البطاطين وهو يدخل ويخرج من بيوت سكانها، ولكنه لم يوفَّق إلى شيء. وقد حاول في أثناء حديثه إلى القوم أن يعرف ما إذا كان أحدٌ من سكان القرية قد ذهب في الصباح الماضي إلى المدرسة أو عاد منها. حاول ذلك دون جدوى.

وعاد إلى المدرسة ليُخبر الناظر بما فعل وقد أَحَسَّ بالإخفاق في المهمة التي وُكلَت إليه؛ إذ كان يعتقد هو نفسه أن السارق من سكان تلك القرية. كذلك لم يوفَّق عليٌّ فيما كُلِّف به. لقد وجد تلميذَين أو ثلاثة لهم نفس نوع الحذاء، ولكن المقياس كان يختلف تمام الاختلاف عن مقياس الأثَر.

بعد أن دقَّ جرس نداء الأسماء في ذلك المساء، تحدَّث الناظر إلى عليٍّ والأستاذ جون، قائلًا: «أشكُر لكما مجهودَيكما. صحيحٌ أننا لم نتعرَّف على شخصية اللص، ولكننا، على ما أعتقد، قد ألقينا الرعب في قلبه. وعلى أية حال لا يجب أن نُغفِل المراقبة.»

فأجاب الأستاذ جون: «سآمُر جميع الروَّاد بالمراقبة الدقيقة.»

المطاردة

مرَّت بقية أيام الأسبوع هادئةً لم تحدُث فيها سرقات. وفي يوم الخميس، وبعد الظهر من ذلك اليوم، اجتمعَت المدرسة كلها لتُشاهد مباراة كرة القدم. كان اللعب عنيفًا، واشترك نلسون وعليٌّ في اللعب كلٌّ منهما في فريق. كلاهما كان سريعًا وقويًّا في قذف الكرة. وكادت المباراة تتحوَّل إلى مبارَزة بين هذَين اللاعبَين الماهرَين؛ ففي أحد المواقف أخذ عليٌّ الكرة وجرى بها قريبًا من مرمى خصمه، حتى أوشك على إصابة هدف، لولا أن نلسون اندفع من الجانب الآخر اندفاع القذيفة، والتفَّ حتى صار أمام علي، وقذف الكرة بقوة، مما جعلها تنطلق مندفعةً خارج الملعب، ولتستقر بين الشُّجيرات الكثيفة بعيدًا عن أماكن المتفرجين، فعَلَا الهُتاف والتصفيق لهذه الحركة البارعة، وأسرع اثنان من اللاعبين إلى الحرجة لاستعادة الكرة. ويبدو أنهما لم يتمكَّنا من العثور عليها. قَلِق عليٌّ، فأرسل اثنَين آخرَين للبحث عنها. واندفع بعض الغلمان من المتفرِّجين ليشتركوا في البحث عن الكرة المفقودة.

كان الناظر واقفًا بجوار عليٍّ وشاهد ما حدث، فقال: «يؤسفني يا علي، أنْ ليس لدينا كرةٌ أخرى تصلُح للعب. وسنُضطَر جميعًا إلى الانتظار حتى يعثروا على الكرة التي قذفها نلسون وسط الأحراج.»

ما هي إلا دقائقُ معدوداتٌ حتى كانت المدرسة كلها وسط الشجيرات والأحراج في الجانب البعيد من الملعب، تبحث عن الكرة.

وبينما الجمع يتحرَّك هنا وهناك كالنحل داخل الخلية، إذا بصوت سيارة تتحرَّك في الجانب البعيد من بناء المدرسة، فقال الأستاذ جون: «ما هذا؟ يُدهشني أن أسمع صوتَ سيارة بجانب المدرسة في مثل هذا الوقت! تُرى، لمن هذه السيارة؟! وإن صوتها لَيعلو على هذا الضجيج!»

فأجاب الناظر وهو يُرهِف السمع: «لستُ أدري، انتظِر قليلًا حتى ألقيَ نظرة ... ما هذا؟ إنها سيارة المدرسة. إني أعرفها من صوت محرِّكها. تُرى، إلى أي البقاع هي ذاهبة؟ وإن السائق في إجازة! فمن ذلك الذي يقودها؟ سأذهب وأرى حقيقة الأمر.»

جرى الناظر والأستاذ جون نحو مصدر الصوت، وقد سَمِعه بعض الصبيان وهم لا يزالون يبحثون عن الكرة. وبينما الأستاذان يجريان سَمِعا صوت المحرِّك يزيد سرعة، ثم بدأَت السيارة تبتعد، فأسرع الرجلان في جريهما، وكان الأستاذ جون في المقدمة، فوصل إلى الحظيرة في الوقت الذي اختفت فيه سيارة المدرسة عن الأنظار وسط الطريق.

فقال الناظر: «مهما يكن ... تعال معي، سنُطارِدها في سيارتي.» واندفع الناظر ليُحضِر سيارته، وكانت واقفةً أمام باب مكتبه.

وبينما كان الأستاذ جون ينتظر مجيء سيارة الناظر، أقبل مارك ومحمد من ملعب الكرة، فقال مارك: «ماذا حدث، يا سيدي؟ رأيتك أنت والناظر تجريان الآن. هل أصيب أحدٌ من التلاميذ؟»

لم يكن هناك متَّسَع من الوقت ليشرح الأستاذ الموقف له؛ فقد حضر الناظر بالسيارة، ووقف أمامهم.

صاح الناظر يقول للأستاذ جون: «أسرِع بركوب السيارة.» ثم لَمح مارك ومحمدًا، فقال: «وأنتما كذلك!»

ركب الأستاذ جون بجانب الناظر، وقفَز محمد ومارك بسرعة في المقعد الخلفي، وانطلقَت السيارة كالسهم تنهَب الأرض خلف سيارة المدرسة، وأقفل مارك باب السيارة فرأى مبنى المدرسة والأشجار تمُر كالبَرق بينما السيارة تُسرِع فوق الطريق المفروش بالحَصْباء. ونظَر إلى عدَّاد السرعة، ففغَر فاه وشخَص بعينَيه، وقال: «ربَّاه! إنها تنطلق بسرعةٍ جنونية!»

وفي تلك الآونة كانت السيارة تدور حول مُنحنًى بالطريق، فارتمى مارك فوق محمد، وكانت الصدمة جِدَّ قوية، فصرخ محمد يقول: «انتبِه يا مارك، ودَعْك من عدَّاد السرعة. لقد ارتمَيتَ فوقي كالفيل فخُيِّل إليَّ أن جدارًا قد سقط فوقي.»

أما الأستاذ جون فصاح يقول: «ها هي!» وأشار إلى جسمٍ صغير تكاد تُخفيه سَحابةٌ من الغبار في آخر الطريق.

لم يكن ردُّ الناظر غير الضغط بشدة على ضاغط البنزين، فعَلَا صوت محرِّك السيارة وارتفعَت ضَجَّتُه. وأخذَت السيارة تتأرجح وسط الطريق، وتترنَّح بين هذا الجانب وذاك.

وذهِل مارك وهو يتطلَّع إلى مؤشر العدَّاد، الذي كان يتحرَّك بسرعة، وكان يردِّد دون وعي: «ستون ... خمسة وستون ... سبعون ... ما هذا، يا إلهي؟ إننا نكاد نطير! لا بد أن الأمر جِدُّ خطير!»

وصل مؤشِّر العدَّاد إلى السبعين، ثم ظل يتذبذب يمينًا ويسارًا، والسيارة تندفع كالسهم تُسابِق الريح، فقال الأستاذ جون وهو ينظر أمامه بإمعان: «سنَلحَق به؛ إذ إننا نسير بسرعةٍ تفوق سرعته.»

فأجاب الناظر: «نعم، سنَلحَق به؛ لأن سيارة المدرسة أبطأ من سيارتي بكثير.»

في تلك الآونة اختفت سيارة المدرسة في منعطفٍ آخر وقد دارت حوله في سرعةٍ جنونية كأنها ثعبانٌ يتلوَّى خلف فريسةٍ سريعة الجري. لقد أحَسَّ سائقها أن سيارةً أخرى تُطارِده، ورآها في المرآة التي على جانب السيارة، وربما عرف أنها سيارة الناظر، فعوَّل على أن يروغَ منها بأي ثمَن وإلا افتُضِح أمرُه.

وفي المقعد الخلفي لسيارة الناظر، كان محمد ومارك يميلان إلى الأمام في ذهول، وهما متشبثان برباطٍ مثبَّت في ظهر المقعد الأمامي والريح تندفع بعُنف فتلفع وجهَيهما لفعًا. وعندما دارت السيارة حول المُنحنَى مالت بشدة، وارتفعَت عجلتان عن الأرض، فأحَسُّوا وكأن السيارة ترتفع في الهواء ... وعلى بُعدٍ قليل لَمَحُوا سيارة المدرسة أمامهم، تُثير سَحابةً من الغُبار. وما هي إلا طرفة عين حتى أصبحوا خلفها مباشرة.

وفجأةً توقَّف صوت سيارة المدرسة، فاتجه الناظر بسيارته إلى اليمين ليتحاشى الاصطدام المحقَّق بعَربة المدرسة؛ إذ كان قريبًا جدًّا منها لا يفصلُه عنها إلا بضعةُ أمتار. وفي اللحظة التي فرُّوا فيها أمامها، لَمح الأستاذ جون سائقها يقفز وينطلق ليَختفيَ في الأحراج الكثيفة وسط الشجيرات المتشابكة الأغصان التي يتعذَّر السير بينها.

أوقَف الناظر سيارته بسرعة، ثم رجَع بها إلى الخلف حتى صار بمحاذاة عربة المدرسة، فصاح الأستاذ جون يقول: «لقد فَرَّ السائق! إنه في داخل الأحراج هناك!»

وصاح الأستاذ بون قائلًا: «ماذا تقول؟ فَرَّ السائق! وراءه، أيها الصبيَّان!»

ما كاد الناظر ينطق بهذه العبارة، حتى كان محمد ومارك خارج السيارة، وانطلقا يُطارِدان السائق داخل الأحراج على سفح التل، يتبعُهما عن كثَبٍ أستاذاهما. كانت المطاردة حامية، وكان التل شديد الانحدار، وظلت الشجيرات ذات الأشواك تمزِّق ملابسهم وتخز أجسامهم فتُدميها، ولكنهم لم يُحِسُّوا بشيءٍ من كل ذلك، وظلوا منطلقين، يشُق الطريقَ أمامهم مارك، على الرغم من قميصه الذي مزَّقَته الأشواك. وبينما هو يجري بأقصى سرعته

إذ سمع شخصًا يسقط خلفه ويلعَن، فنظر وراءه فإذا الناظر قد وقع على الأرض. بيد أنه نهَض في الحال، وأخذ يتبعُه. وهكذا ظل الأربعة يتعثَّرون ويسقطون ثم يتابعون الجري حتى خرجوا من الأحراج إلى الحقل الفسيح عند سفح التل. وعندئذٍ لم يرَوا أحدًا يتحرك أمامهم في ذلك الخلاء الشاسع، فشَرَعوا يُرهِفون أسماعَهم على صوت تحرُّكه يصل إلى آذانهم، ولكن ... لم تكن هناك أصوات. لقد اختفَى تمامًا كأنما انشقَّت الأرض وابتلعَتْه، فنظر الأستاذ بون إلى الأستاذ جون، وقال: «هكذا صار أمرنا! أخشى أن يكون قد أفلَت منا. لا فائدة من مطاردته الآن. هل استطعتَ أن ترى وجهه؟»

– «كلا، يا سيدي! ومع كلٍّ فقد رأيتُه قصير القامة، أسمَر البشرة.»

– «على أية حال هذه معلوماتٌ نافعة. هيا إلى السيارة.»

ركب الناظر سيارتَه، واتجه بها إلى المدرسة ليُحضِر زوجته، تاركًا المدرِّس والتلميذَين ليحرُسُوا عربة المدرسة، فلما عاد قادت زوجتُه سيارتَهما بينما قاد هو سيارة المدرسة.

المُخبِرون

وصل الأربعة إلى المدرسة، فوجدوا جمعًا كبيرًا من التلاميذ ينتظرونهم وقد علَت الدهشة وجوههم. كانوا يرغبون في معرفة ذلك الأمر، الذي دعا الناظر ومن معه إلى الإسراع بالسيارة في تلك العجلة، والسبب الذي من أجله صَحِب الناظر الأستاذ جون والرائدَين معه! لا بد أن يكون هناك سِرٌّ خطير.

وسرعان ما أحاط بعضُ هؤلاء الطلبة بمحمد ومارك يستفسرون منهما عن سِرِّ هذه القصة، ويسألونهما عن مغامرتهما. أما الناظر فصَحِب الأستاذ جون إلى مكتبه، وجلسا يبحثان المسألة من شتى نواحيها، ويتشاوران فيما بينهما، فقال الناظر: «ما رأيك في هذا الأمر، يا أستاذ جون؟»

– «يبدو أن شخصًا ما، حاول سرقة عربة المدرسة.»

– «نعم، هذا ما تراءى لي أنا أيضًا. ومن الجليِّ أنه شخصٌ ماهر في قيادة السيارات. ولا أحد هنا في المدرسة يستطيع أن يقود السيارة بتلك المقدرة الفائقة غير سائق المدرسة ... ولكنه ذهب إلى دار السلام منذ أربعة أيام، في إجازة. ومعنى هذا ... أن السارق لا بد أن يكون شخصًا غريبًا.»

– «نعم، يا سيدي، لا بد أن يكون من المدينة لأنه، بحسب ما أعرف، لا يُوجَد بالقرية القريبة مِنا مَن يعرف قيادة السيارات.»

– «أتظن أن هناك علاقةً بين هذه المحاولة وسرقة البطاطين والأطعمة؟»

– «في اعتقادي أن هذا مُحتمَل جدًّا. وإن صح، فإنه يهدم فكرتي السابقة من أساسها؛ إذ كنتُ أظن أن السارق من سكان القرية.»

– «إنك على حق، يا أستاذ جون. إنني أميل إلى الاعتقاد بأنه شخصٌ من جهةٍ بعيدة عن هذه المنطقة، وربما كان من المدينة. يجب أن أخطِر الشرطة بهذه المحاولة، ولكني أريدُك أن تضَع خطَّة مع علي، للقبض على اللص إن حاول السرقة مرةً أخرى.»

– «حسَن! وسأدبِّر الأمر معه، يا سيدي.»

انصرف الأستاذ جون، فانزوى مع عليٍّ في مكانٍ قَصِي، بعيدًا عن الطلبة، وأخذا يستعيدان الأحداث وما يُمكِن عمله لمعرفة ذلك اللص الجريء، فقال الأستاذ جون: «إن الأمر ليتطلب استخدام جميع الروَّاد، وأظنهم جميعًا موضعَ ثقة، أليس كذلك، يا علي؟»

– «نعم، يا سيدي! ومن المحتمل أن يُمدُّونا بآراءٍ طيبة قد تُوصلُنا إلى حل ذلك اللغز.»

عُقد اجتماعٌ عاجل لرواد الفصول، فبَسَط أمامهم جون الأحداث التي وقعَت، ثم جلَس ينتظر تعليقاتهم … مضت فترة سكون لم يَنبِس خلالها أحد ببِنتِ شَفة، ثم تكلم علي، فقال: «وحتى إذا كان السارق غريبًا فلا بد أنه يعرف كل شيء عن المدرسة؛ لأنه عَرَف متى يسرق الطعام، ومتى يأخذ البطاطين!»

وافَق كثيرٌ من الروَّاد عليًّا على ذلك الرأي، ثم تحدَّث مارك فجأة، فقال: «لي ملاحظةٌ أخرى على مباراة كرة القدم. لقد سُرِقَت السيارة عندما كنا جميعًا في الملعب. لا بد أن يكون هناك اتفاقٌ على ذلك؛ إذ سُرِقَت في الوقت الذي لم يكن أحدٌ منا فيه قريبًا من حظيرة السيارات. نعم، لا بد أن يكون السارق شخصًا يعرف الكثير عن المدرسة.»

فقال الأستاذ جون: «هذه ملاحظةٌ دقيقة، يا مارك. أظنك اكتشَفت شيئًا بالغ الأهمية.»

وقال نلسون: «أما أنا، فلستُ من هذا الرأي؛ فجميع المدارس تُبقي الطعام في المطبخ ليلًا، وجميع المدارس تقوم بالتدريس في الصباح، وعندئذٍ يكون التلاميذ بالفصول ولا يكون أحدٌ منهم بحُجرات النوم. وكثيرٌ من المدارس يُقيم مباريات كرة القدم بعد ظهر يوم الخميس، وهذه كلها أمورٌ معروفة؛ لذلك فإني أعتقد أن السارق شخصٌ غريب تمامًا عن هذه المنطقة.»

انضَم ثلاثة أو أربعة روَّادٍ آخرين إلى رأي نلسون.

فقال الأستاذ جون: «حيث إننا نختلف في هذا الأمر، فلنتركه الآن جانبًا، ولنتحدث في شيءٍ آخر. أقترح أن تؤلَّف لجنةٌ خاصة لمراقبة ما يحدُث من جرائم، ومحاولة البحث عن المجرم، فإذا فتحنا عيوننا كما يجب، وأرهَفْنا سَمْعَنا، فقد نلتقط دليلًا ما يساعد على حل هذا اللغز.»

فقال علي: «أتقصد أن نصير مُخبِرين، يا سيدي؟»

فأجاب الأستاذ جون: «لا أعتقد أن لنا المقدرة والتدريب الكافيَين لنكون مخبرين. ومع كلٍّ، فلا مانع من أن نعتبر أنفسنا مخبرين.»

ظل الروَّاد مدة يومٍ أو اثنَين، بعد هذا الاجتماع، يجوسون خلال كل مكانٍ بحثًا عن شيءٍ قد يتصل بالجريمة من قريبٍ أو من بعيد، فقام بعضهم بفحص عجلة القيادة بالسيارة عسى أن يكون عليها بصماتُ أصابعِ شخصٍ غريب، فوجدوا كثيرًا من البصمات، ولكنها لم تكن إلا بصمات الناظر؛ فهو آخر من قاد تلك السيارة. وفحَص بعضٌ آخر باب الحظيرة، وقرَّروا أن السارق كسر القُفل بآلةٍ ثقيلةٍ غير حادة. بيد أن هذا كله لم يُوصلْهم إلى التعرُّف على السارق، أو يقرِّبهم من الحقيقة. وأخذ فريقٌ ثالث يتسمَّع حديث الصبيان، مختفين وراء الأبواب أو خارج نوافذ حجرات النوم.

عرف الروَّاد ما يقوله عنهم سائر التلاميذ، ولكنهم رغم هذا لم يعرفوا شيئًا يُمكِن أن يساعد على الوصول إلى سِر تلك السرقات، ولم ينجح في هذا غير مارك الذي جاء بأول خيط؛ فبعد ظهر يوم الجمعة كان يسير في المنطقة التي رؤي السائق فيها في اليوم السابق، وأخذ يفحَص المنطقة بعناية. وظل زُهاءَ ساعةٍ يفحَص ويفتِّش دون جدوى، وفجأةً عثَر على آثار أقدام لحذاءٍ بنعله ثقوبٌ مستديرة. وطَفِق يتبعُها بدقة، حتى لَمح قطعةً من القماش تتدلى من شُجيرةٍ شائكة، يبدو أنها قُطعَت من قميص صاحب آثار الأقدام وهو يجدُّ في الفرار، فعاد مارك وأخبر الأستاذ جون بما رأى، وأطلَعه على قطعة المنسوج، فسُر الأستاذ بذلك الاكتشاف أيما سرور، وقال: «هذا يُثبِت أنه نفسُ الشخص الذي سرق البطاطين والعربة، فإذا أمكنَنا العثور على شخصٍ له نفسُ آثار الأقدام، وله قميصٌ من ذلك القماش، نكون قد قبضنا على اللص.»

في تلك اللحظة صَلصَل الجرس يجمع التلاميذ، فذهب الأستاذ ومارك إلى مكان وقوف التلاميذ، فوجدَهم الأستاذ جون مصطَفِّين استعدادًا لقدومه — وبدأ ينادي الأسماء. كانوا جميعًا حاضرين، ولما بلغ اسم محمد، نادى: «محمد جمعة.»

فلم يرُدَّ عليه أحد.

وأعاد النداء: «محمد جمعة ... محمد.»

ولكن لا مجيب على ندائه.

هل يعرف أحدُكم أين محمد؟ ولمَّا لم يرُدَّ عليه أحد، نادي الاسم الثاني: «موسى!»

– «موجود يا سيدي.»

– «نعمان.»

– «موجود، يا أستاذ!»

– «نلسون.»

فلم يرُدَّ عليه.

قطَّب المعلم جون، وقال لنفسه: «تلميذان غائبان!» ثم استمر يُنادي بقية الأسماء. وكان سائر الباقين موجودين.

بعد أن صرف الأستاذ جون التلاميذ، أمَر عليًّا بأن يحاول العثور على الطالبَين الغائبَين، ثم يعود إليه ليُخبره بأمرهما، فانصرف عليٌّ مهمومًا قلقًا خشية أن يكون قد أصابهما أذًى، أو يكون للسارق يدٌ في غيابهما، فعوَّل على أن يسأل عنهما كل فرد، ويبحث في كل مكان. وصمَّم على ألا يعود إلى أستاذه أو يبيت ليلتَه في سريره إلا إذا اطمأن عليهما ... فكَّر في الذهاب أولًا إلى حجرات النوم ... وبينما هو في طريقه إليها، مَر بجانب معمل المدرسة، فإذا به يسمع أنينًا خافتًا آتيًا من حجرة المعمل، فاقشَعَر بدنُه، ووقف يُنصِت بإمعان، فسمع الصوت ثانية، فعاد أدراجه، ودار حول مبنى المدرسة ودخل الرَّدهة، ثم إلى المعمل. كان الضوء خافتًا جدًّا حتى إنه لم يتبيَّن شيئًا، ولكن بدا له أن صوت المتأوِّه يصدُر من خلف مكتب المدرس، فاتجه نحوه، وأطَلَّ برأسه، فإذا بأسفل المكتب شخصٌ مكوَّم يئن ويتوجع، فقال بانزعاج: «من أنت؟»

فرَدَّ عليه الشخص بأنَّةٍ لم يستطع عليٌّ أن يفسِّر منها حرفًا، فقال ثانيًا: «تكلَّم!» وانحنَى ليجذبه من خلف المكتب. ولشَدَّ ما كانت دهشة عليٍّ عندما رآه تلميذًا مقيَّد اليدَين والرجلَين بحبل، وقد رُبط حول فمه برباطٍ سميك.

فقال مأخوذًا: «ربَّاه! ما هذا؟ إنه محمد!» ثم انحنَى ليفُك قيوده وليحلَّ الرباط، فلما انتهى من ذلك، قال: «كيف حدث لك هذا يا محمد؟»

لم يُجِب محمد، وإنما صدَرَت عنه أنَّة، وبقي في مكانه لا يتحرك.

فقال علي: «هل إصابتُك بالغة؟»

أمسك محمدٌ رأسَه بيدَيه ولم يتكلم، فأسرع عليٌّ نحو الباب وشرع يصيح بأعلى صوته طالبًا النجدة.

لغزٌ جديد

ما هي إلا ثوانٍ حتى هُرع التلاميذ من كل فجٍّ وصوبٍ إلى مصدر الاستغاثة، فحمَلوا محمدًا إلى غرفة المرضى؛ حيث احتشَد جمعٌ كبير حول سريره، وسرعان ما أقبل الناظر، فلما وقف على الأمر، غضِب وثار، ثم التفَت إلى التلاميذ وقال: «لماذا احتشادُكُم هنا جميعًا حول السرير، أيها الصبيان؟ انصرِفوا، ولا يَبقَ هنا غير عليٍّ ومارك.»

مضى التلاميذ خارجين. وبعد انصرافهم انحنَى الناظر ليفحص محمدًا، ثم قال: «يا له من وغد! أعتقد أنه ضرب محمدًا بهِراوة على رأسه ضربةً قوية. ومع ذلك فلم تنكسر أية عظام بالجمجمة. أتستطيع إخباري بمَن فعل بك هذا، يا محمد؟»

فتح محمد عينَيه السوداوَين الواسعتَين، ونظر إلى الأستاذ بون في صمت، ولكن نظرته كانت أفصح من الجواب. لقد عبَّرَت للناظر عما يُقاسيه من آلام، كما عبَّرَت له عن شُكره، فقال الأستاذ بون في نبراتٍ مليئة بالعطف والحنان: «حسَن! إذن، فماذا حدث يا بُني؟»

تردَّد محمد لحظة، ثم استجمع قواه وقال بصوتٍ يكاد يكون غير مسموع: «لقد هُوجمتُ وقُيِّدتُ، يا سيدي؟»

قال: «أعرف هذا، يا محمد. ولكن من الذي هاجمَك وقيَّدك؟ هل رأيتَه؟»

سكت محمد ولم يُحِر جوابًا، فقال الناظر: «لا بُد أن تخبرني، يا محمد. مهما كانت شخصية الذي اعتدى عليك فهو شخصٌ خَطِر. هيَّا، أخبرني يا محمد.» ثم أقبل عليه وأمسك بيده، وجعل يُربِّت عليها ويُلاطِفه.

مضت لحظاتٌ خُيِّل إلى الناظر فيها أن محمدًا لن يُجيب عن سؤاله، ثم ما لبِث أن قال في هدوء ووضوح: «إنه نلسون، يا سيدي!»

دهِش الناظر، وقال: «نلسون! أمتأكدٌ مما تقول، يا محمد؟ يبدو أن هناك خطأ، هذا غير معقول!»

فأجاب محمد: «ليس هناك من خطأ، يا سيدي. إنه نلسون الذي ضَربَني وقيَّدَني.»

فقال الناظر: «ولكن، ما الذي حدا به أن يفعل بك هذا؟» ثم استدار نحو علي، وقال: «أين نلسون الآن؟»

فأجاب علي: «لستُ أدري، يا سيدي. لم يكن حاضرًا وقت نداء الأسماء.»

صمَت الأستاذ بون بُرهة، ثم أخرج عُلبة لفائف التبغ، وأشعل منها واحدة، ثم قال: «وهل بحثتَ عنه؟»

قال: «لم أبحث عنه بعدُ، يا سيدي!»

التفَت الناظر إلى محمد، وسأله: «هل تعرف أين ذهب نلسون بعد أن ضربك، يا محمد؟»

– «كلا، يا سيدي!»

فقال الأستاذ بون: «اسمع يا علي، أرسِل عددًا من الأولاد يبحثون عنه في كل مكان حول المدرسة. اجتهِدوا في أن تأتوني به على عَجل.»

خرج عليٌّ ومارك، وجلس الناظر إلى جانب محمد، وهو يدخِّن لفافته وينفُث الدخان في عصبية، وقد دارت في مخيِّلته شتى الاحتمالات، ثم قال: «ها نحن وحدنا الآن، يا صغيري محمد. أخبرني بقصتك كلها. أظنُّك تشاجرتَ مع نلسون، أليس كذلك؟ فعَلامَ تشاجرتما؟»

رقَد محمد صامتًا في السرير وأمسك عن الإجابة، غير أن الأستاذ بون نظر إليه بعَطف، ثم انتقل وجلس على حافة السرير، وقال: «أعرفُ أنك لا تريد أن تبوح لي بما بينك وبين نلسون من أسرار، ولكن هذا ليس شجارًا عاديًّا. لقد تطوَّر الأمر إلى شروع في قتل؛ إذ ضربك بعنف، وقيَّدك، ثم فرَّ واختفى. لا أريد أن تحدُث مثل هذه الأمور في مدرستي. إنني ناظرك، ولا بد أن تُفضي إليَّ بسِر هذا الأمر. انظُر إليَّ يا محمد: إنني أقرأ في عينَيك أنك تُخفي أشياءَ كثيرة، وتحتفظ في دخيلة نفسك بسِر لا تريد البوح به.»

اتجه محمد بناظرَيه نحو الأستاذ بون، والدموع تترقرق في مقلتَيه. وسرعان ما أغمَض جفنَيه، فقال الناظر في هدوء: «نعم، يا محمد. إنني أصغي إليك، تكلَّم.»

فقال محمد بصوتٍ منخفض: «لا يُمكِنني إخبارُك، يا سيدي، لا أجرؤ على هذا.» ثم شَرَع ينتحب.

ابحثوا عن نلسون

نظر الأستاذ بون إلى محمد وهو يبكي، وجسمُه الصغير ممدودٌ فوق السرير، فحار في تفسير سبب ذلك البكاء، وأخذ يقول في نفسه: إن نلسون من خير رُوَّاد الفصول بمدرستي، ولا يمكن أن يعتَديَ على محمد بهذه الصورة الوحشية بغير دافعٍ قوي. ثم جال بفكره موضوعُ السرقات التي حدثَت في الأسبوع الماضي. أيمكن أن يكون لمحمدٍ يدٌ فيها؛ ولذلك قام نلسون من تلقاء نفسه، بمعاقبته؟ ربما ضرب نلسون محمدًا، ثم خشي عاقبة فعلتِه فهرب ... ثم نظر إلى محمد وقال: «هل هناك علاقة بين السرقات وبين الاعتداء عليك؟»

عندما سمع محمد هذا السؤال أدار رأسه متعجبًا، ونظر في عينَي الأستاذ بون مباشرة، فلمَح هذا في عينَيه أمارات الخوف والارتياح ممزوجةً معًا.

في تلك الآونة قال الأستاذ بون لنفسه: «لقد أتى هذا السؤال بالغرض الذي أبغيه. إنني أقترب الآن من الحقيقة.» ثم قال بصوتٍ مرتفع: «لا تُحاوِل الإنكار يا محمد. إن عينَيك تقولان لي إن للاعتداء علاقةً بالسرقات، فما هي تلك العلاقة؟ وماذا كان دورك في هذه السرقات؟»

أخذ محمد ينتحب بصوتٍ مسموع، ثم قال: «نعم، يا سيدي! إنك على حق. لقد ضربني بسبب السرقات. ضربَني لأني عرَفتُ عنها بعض الشيء.»

– «ماذا عرَفْت؟» ... ولَمَّا لم يُجب محمد بشيء، سأله الناظر قائلًا: «أكنتَ تُساعِد اللص؟»

ما إن سمع محمد هذا السؤال حتى استوى جالسًا في السرير، وقال: «كلا، يا سيدي! لستُ أنا الذي ساعد اللص، بل هو نلسون.»

فصاح الناظر في دهشة: «نلسون!»

– «نعم، يا سيدي. عرفتُ أن له علاقةً بالسرقات، فضربني ليمنعني من الإفضاء بما أعلمُه إلى أحد.»

نظر الأستاذ بون مليًّا إلى محمد، فوجَّه هذا بصره إلى عينَي الناظر تمامًا، فقال الناظر في نفسه: «إن الصبي يقول الصدق الآن.» ثم خاطب محمدًا بقوله: «أخبرني بقصة نلسون يا محمد.»

كفَّ محمدٌ عن البكاء، وأخذ يتكلم بطلاقة وبوضوح، فقال: «أتتذكَّر، يا سيدي، الليلة التي باتها نلسون في المطبخ، ليراقب اللص؟ لقد وجدتُ من الغريب أن تنقطع سرقة الطعام منذ تلك الليلة. وفي الصباح التالي الذي سُرقَت فيه البطاطين، رأيتُ نلسون يتسلَّل إلى حجرة نومنا، وهي الحجرة التي سُرقَت منها البطاطين. إنها ليست حجرة نومه، ولم يتعوَّد دخولها من قبلُ، ثم في مباراة كرة القدم يوم الخميس، لعلك تذكُر، يا سيدي، أن نلسون قذف الكرة بعنف إلى الأحراج ليتعذَّر العثور عليها. وبينما كان معظم التلاميذ يبحثون عنها، أبصرتُه يتسلَّل بسرعةٍ خارج الملعب ويتجه نحو المدرسة. وبعد ذلك مباشرةً سمعت، سيادتك، صوت سيارة المدرسة، فظننتُ أنه لا بد أن يكون نلسون هو الذي خرج بالسيارة.»

كان الناظر يستمع إلى محمد وقد ملأَت الدهشة قلبه لكل تلك الأحداث، ثم قال: «أتقصد أنه قذف الكرة عمدًا إلى داخل الأحراج حتى يشغل كل فرد في البحث عنها، وعندئذٍ يستطيع الخروج لسرقة سيارة المدرسة دون أن يراه أحد؟»

– «نعم يا سيدي. هذا ما أقصده.»

فقال الناظر: «ولماذا لم تُخبِر أحدًا بشكوكك؟»

قال: «كنتُ على وشك الإفضاء بها إلى الأستاذ جون، ولكني رغبتُ في أن أعطي نلسون فرصةً ليعترف بكل شيء، فنصحتُه في مساء هذا اليوم، وأخبرتُه بما لاحظتُه، وكنا في المعمل، فما كان منه إلا أن ضربَني بعنف، وفعل بي كما سمِعْت.»

ارتسم الارتياح على وجه الناظر، وقال: «فهِمتُ كل شيء الآن. يبدو أنك خدمتَنا في معرفة المجرم الأثيم، لقد أحسنتَ صنعًا، يا محمد، يجب أن أنصرف لأدبِّر مسألة البحث عن نلسون، أما أنت، فابقَ هنا واسترِح.»

أسرع الأستاذ بون بالخروج من غرفة المرضى تاركًا محمدًا متدثرًا ببطانية، وقد ارتاح ضميرُه بعد أن أفضى إلى الناظر بما كان يُقلِق باله ويشغَل خاطره. وبينما كان الأستاذ بون متجهًا إلى مكتبه التقى بالأستاذ جون، فسأله: «هل من خبر عن نلسون؟»

– «كلا، يا سيدي! لقد اختفى تمامًا كأنما انشقَّت الأرض وابتلَعَته. بحث الأولاد عنه في كل المنطقة المحيطة بالمدرسة، دون جدوى. وما من أحدٍ رآه في هذا المساء. كما أن الوقت الآن ليل، ولا يُمكِن اقتفاء آثار أقدامه إن عُرفَت.»

فقال الأستاذ بون: «يجب أن نعثُر عليه. يبدو أنه هو اللص الذي نبحث عنه.» ثم أخبره بكل ما علِم من محمد.

– «إذن، فالتهمة خطيرةٌ ضده. لا أكاد أصدِّق أن نلسون يمكن أن يفعل هذا، رغم كل ما حدث! آه ... نسيتُ أن أخبِرك أن مارك عثَر بعد ظُهر هذا اليوم على دليلٍ قد يُوصلُنا إلى معرفة مَن كان يسوق سيارة المدرسة عند محاولة سرقتها.»

ثم قَصَّ عليه موضوع آثار الأقدام، وقطعة المنسوج المنزوعة من القميص.

فقال الناظر: «هذه معلوماتٌ قيِّمة ولا شك. سنرى إن كان لدى نلسون حذاءٌ ينطبق نعلُه وآثار الأقدام، وقميصٌ ممزَّق يُخفيه في مكانٍ ما، من نفس نوع قطعة القماش. وبهذه المناسبة هل رأيتَ السائقَ وقت أن هرب تاركًا السيارة؟»

قال: «نعم، كان قصيرًا أسمَر اللون. وهذان الوصفان ينطبقان على نلسون.»

– «إذن فلا بد أنه أسرع بالخروج من الملعب ليذهب إلى الحظيرة، فهل كان السائق الذي رأيتَه، يا أستاذ جون، يرتدي قميص اللعب؟»

– «كلا، يا سيدي. لا بد أنه بدَّل هذا القميص أيضًا.»

– «وهل كان نلسون حاضرًا عند نداء الأسماء يوم الخميس؟»

– «نعم، رأيتُه هناك ... لقد تأخَّرنا، بطبيعة الحال، في نداء الأسماء ذلك المساء بسبب محاولة السرقة التي حدثَت. إذن فقد كان أمامه متَّسَع من الوقت يكفي لأن يعود من المكان الذي ترك فيه السيارة.»

فقال الناظر: «يبدو أن الدليل كافٍ جدًّا، والآن كل ما يجب علينا أن نعثُر على نلسون. اذهب إلى القرية، وحاول أن تعرفَ ما إذا كان هناك مَن رآه، اصطحِب معك عليًّا ليساعدك، أما أنا فسأذهب بسيارتي إلى المدينة لأستعلم وأبحث عنه هناك. يحسُن أن يُرافقَني أحد الروَّاد. إن مارك شابٌّ ذكي، أخبِره بأن يستعد للمجيء معي.»

إلى المدينة

ذهب الناظر مسرعًا إلى بيته، وبينما كان يُخرِج سيارتَه من الحظيرة، جرى مارك ليَلحقَ به. وسرعان ما ركب كلاهما، فانطلَقَت بهما السيارة في طريق المدينة كأنها السهم، هابطةً سفح التل. كانت الشمس في طريقها للغروب، وأخذَت تختفي وراء التلال البعيدة، وبدأ الليل يزحف خطوة، يسكُب الظلام في الوادي قطرةً قطرة. وكان مارك ينظر إلى الأستاذ بون من آنٍ إلى آخر، ولكن الناظر كان يقود السيارة في صمتٍ وعلى وجهه أماراتُ الصرامة. كان مارك قد سمع عن آخر أنباء نلسون، فأخذ يفكِّر في أنسب مكانٍ يُمكِن أن يبحثا عنه فيه. وأخيرًا تذكَّر أن لنلسون عمًّا يقطن بالمدينة، فأفضى إلى الناظر بهذا الأمر، فوافق على أن يبحثا عنه أولًا في بيت عمه.

انطلقَت السيارة تخترقُ شوارع المدينة في ضوء المصابيح، وكانت الطرقات هادئةً خالية من الأهلين في هذه الساعة. ولَمَّا تركَت الطريق العام وانحرفَت إلى شارعٍ جانبي وجدا ضجَّة وأبصرا أناسًا كثيرين، فمرَّا بجماعاتٍ منهم محتشدين على ضوءٍ ينبعثُ من أحد الحوانيت الهندية. وكان مارك يعرفُ بيت عم نلسون فدَلَّ عليه الناظر.

وقفَت السيارة أمام بيتٍ كبيرٍ مبني من اللبِن ذي سقفٍ من القش ينبعث من داخله ضوءٌ شديد، وبلغ سمعَيهما أصواتُ أناسٍ يتحدثون، فقال مارك: «هل أدخل أنا أولًا؟»

– «نعم ... أعتقد أن هذا أصوب، وسأتبعُك في الحال.»

نزل مارك من السيارة، واتجه نحو الباب الأمامي لذلك المنزل العتيق، وطرَق الباب، فلم يرُدَّ عليه أحد، ففتَحه ودخَل، فإذا به في رَدهةٍ صغيرةٍ مظلمة، وسمع أصواتًا خلف بابٍ على يمينه، فانحنَى نحو ذلك الباب، وأرهَف السمع، فالتقَط صوتًا يقول: «هذا الشراب الأوروبي غالي الثمن جدًّا، ولكنه في غاية الجودة ... أعطني مزيدًا منه!»

فأجاب صوتٌ آخر: «هاكَ قَدحًا آخر، ولكن حذارِ من أن تُريقَه.» وعلى الرغم من عدم وضوح ذلك الصوت، فقد خُيِّل إلى مارك أنه يعرف صاحبه.

وقال صوتٌ ثالث: «لا عليك؛ فلدينا الكثير منه.» فعرَفه مارك من فَوره. إنه صوت نلسون.

لم ينتظر مارك ليسمع أكثر من هذا، فدفع الباب ودخل، وما إن خطا داخل الحجرة حتى شخَص وجهان ببصرَيْهما نحوه، ولَمح ظَهْر شخصٍ ثالث يُسرِع بالخروج من الباب الخلفي. وكانت الحجرة قد انتشَر في جوِّها دُخان لفائف التبغ، وامتلأَت برائحة الشراب ... عرف مارك الوجهَين المتطلعَين إليه. إنهما وجها نلسون وعمِّه، فبادرهما بقوله: «السلام عليكم! كيف حالك، يا نلسون؟»

فأجاب هذا بخشونة: «ماذا تريد مني هنا؟» ونهض واقفًا، فانسكَب منه قدَحٌ كان بيده من فَرْط ارتباكه.

– «لا شيء ... جئتُ لأبحث عنك ليس غير.»

– «ولماذا؟» وحاول أن يُخفي لِفافة تبغٍ كانت في يدَيه، والتفَت حوالَيه في عصبية، وأحدَق النظر في الباب خلفه.

فقال مارك: «لقد وجدنا محمدًا!»

عندئذٍ ظهر الناظر واقفًا عند الباب، ومن خلفه ينتشر ظلام الرَّدهة، فاتجهَت نَحوَه أنظار الجميع. أما هو فألقى نظرةً صوب نلسون، وقال: «أرى أنك في حفلٍ صاخب، يا نلسون، أهذا عمك؟»

أومأ نلسون برأسه، ووقف متشبثًا بحافة المائدة، وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الخوف والخجل، وألقى لِفافة التبغ من يده على الأرض قبل أن يراها الناظر، الذي خاطب عم نلسون بقوله: «معذرة، يا سيدي! اغفر لي مجيئي إلى منزلك على هذه الصورة. ولكن نلسون هنا، وهو تلميذي وتحت رعايتي ومسئوليتي. ولا ينبغي له أن يكون هنا هذه الليلة، ويجب أن يعود إلى المدرسة.»

بدا بوضوح أن عم نلسون لم يكن متمالكًا نفسه، فوقف يترنَّح رغم محاولته الثبات. لم تُطاوِعه قدماه، ولم تَقوَيا على حَمْل جسمه. فابتسَم ببلاهة للناظر، وقال: «مرحبًا بك، يا سيدي، في منزلي ... هلا تفضَّلتَ بالجلوس؟»

فأجاب الأستاذ بون بحدَّة: «كلا. شكرًا لك. تعالَ معنا يا نلسون. هيا بنا إلى المدرسة.»

طَفِق نلسون ينظر؛ مرةً إلى الأستاذ بون، ومرةً أخرى إلى مارك. وأدرك أنه وقَع في الفخ، فهَزَّ كتفَيه وسار خارجًا؛ إذ لم يجد مفرًّا من المسير. بيد أنه كان مضطربًا في مِشْيته،

ولم يَقوَ على الاحتفاظ بتوازنه، واضطُر إلى أن يميل بجسمه على مارك، ورائحة الدخان تنبعث من فمه.

بقي مارك متأبطًا ذراع نلسون وكان يسير بخطًى وئيدة؛ إذ كان يجرُّه جرًّا حتى خرجا من البيت، فوقف نلسون في الهواء الطلق، فكأنما قد أفاق من نَشوته. وكان الناظر قد سبقَهما، فجلس في مقعد القيادة بالسيارة.

تردَّد نلسون، وحار في أمره. هل يركب بجانب ناظر المدرسة، أو يَفِر، أو ماذا يفعل! فلما أبصر الناظر حَيْرته، أمَر بخشونة أن يركب إلى جانبه. وعندئذٍ صدع بالأمر، ورَكِب مُرغمًا. أما مارك فجلس في المقعد الخلفي يراقب نلسون مراقبةً دقيقة خشية أن يحاول القفز من السيارة والهرب، فثبَّت نظره عليه متحفزًا للإمساك به إن بدَرَت منه أية حركة لمحاولة الفرار، ولكن نلسون لم يُحاوِل ذلك قط، بل بقي في مكانه مُطأطَأ الرأس خِزيًا وخَجلًا.

ما إن عادوا إلى المدرسة حتى أمر الناظر بأن يُحبَس نلسون في غرفة المرضى، وحظَر على جميع الطلبة الاتصال به. ولم يُبدِ نلسون أيَّ احتجاجٍ على هذا التصرُّف.

بعد أن حُبس نلسون، اتجه الناظر نحو مارك، وقال: «شكرًا يا مارك. لقد كنتَ عونًا كبيرًا ومساعدًا قويًّا في البحث عن ذلك الوغد والقبض عليه. وإني لآسف لكل ذلك التعَب. يبدو أن الأمور ستكون جِدَّ عصيبة ضد نلسون.»

لَمَّا عاد مارك إلى حجرة نومه، وجد عليًّا ينتظره هناك، فأخبَره بكل ما حدث. وكان عليٌّ يُصغي بانتباه. ولَمَّا فرغ، حيَّاه تحية المساء، وأوى كلٌّ منهما إلى فراشه.

صمت

أشرقَت شمس الصباح، فإذا المدرسة كأنها خلية نحل، كل جماعةٍ تقف في ناحية وتتحدث في موضوع السرقة والاعتداء على محمد والقبض على نلسون بمساعدة مارك، وراح كل فردٍ يتكهَّن بما سيحدُث بعد إبلاغ الشرطة بالأمر، وما سيُسفِر عنه التحقيق. وتشعَّبَت الآراء حول زميلهم نلسون. كان بعضهم يؤمن تمام الإيمان بأنه مذنب، بينما أخذ البعض الآخر يدافع عنه ويؤكِّد براءته من السرقة براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وبعضٌ ثالث يرى أن السارق الحقيقي مجهول، وقد انتهَز فرصة الشجار بين نلسون ومحمد، وزيارة نلسون لعمه بمحض الصدفة، فأوعَز إلى الناظر بأن يتهم نلسون. وهكذا كان كل فريقٍ يُحلِّل الموقف كما يتخيَّله، ويعلِّق عليه بما يتراءى له. أما مارك فوقف على الحياد لا يتهم زميله ولا يُبرِّئه، وإنما ظل صامتًا يُصغي بانتباه إلى كل ما يُقال. وأدهشَه أن آثار الأقدام وقطعة المنسوج المنزوعة من القميص تتفق تمامًا والأدلة ضد زميله. وفي هذه الأثناء كان الناظر والأستاذ جون يحقِّقان مع نلسون، فجلس الناظر في مقعده الكبير منقبض الأسارير صارم النظرات، وجلس الأستاذ جون إلى جانبه، بينما وقف المتهم مطأطَأ الرأس خزيًا وخجلًا، وقد ثبَّت ناظرَيه إلى الأرض لا يُجيب بكلمةٍ واحدة عن السؤال الذي وُجِّه إليه عدة مراتٍ عن دوره في السرقات، وأخيرًا التفَت إلى الناظر، وقال: «يجب أن تثبت التهمة ضدي، يا سيدي! لن أقول شيئًا.»

جلس الناظر صامتًا يفكِّر، ثم سأله في النهاية: «أتعترف بأنك ضربتَ محمدًا؟»

ساد السكون لحظة، قطَعه نلسون بقوله: «نعم، أعترف بهذا، ولا أكثر منه.»

فقال الناظر: «لم أعهَد فيك مثل هذا السلوك من قبلُ، يا نلسون. لا يُعجِبني هذا المسلك، ولن تُفيد منه شيئًا، بل على العكس سيجعلك مسئولًا عن جميع السرقات التي حدثَت بالمدرسة ... وعلى أية حال، لقد اعتديتَ على محمد، وفرَرتَ من المدرسة، وذهبتَ

إلى بيت عمك لتُشارِك في ذلك الصخَب. وإنك لتعلم يقينًا أن هذه الأفعال خرقٌ لقوانين المدرسة تستحق عليها العقاب. وسأعاقبك الآن أولًا، سوف أخلع عنك لقب الريادة؛ إذ يجب في الرائد أن يكون مثال الاستقامة والأخلاق الحسنة. وثانيًا لن تُغادِر حجرة المرضى حتى ينجلي موضوع السرقات تمامًا. وثالثًا أنذِرك، إذا لم تُخبرني بالدور الذي قُمتَ به في مسألة السرقات، بأن أطلب الشرطة وأسلِّمك إليهم ليُحقِّقوا معك على ضوء هذه الأحداث الأخيرة. ألديك ما تقوله الآن؟»

– «كلا، يا سيدي!» قال هذا ورأسُه ما زال مُطَأطَأً.

– «حسن! إذن، خُذه إلى حجرة المرضى، يا أستاذ جون!»

دق ناقوس فسحة الصباح فنزل التلاميذ إلى الفِناء، فإذا بإعلانٍ مثبَّت على اللوحة يُخطِرهم بأن نلسون لم يعُد رائدًا لفصله، فتجمَّع حوله حشدٌ من التلاميذ، وأخذوا يتناقشون في هذا الموضوع. وجرَّهم الحديث إلى السرقات، وحبس نلسون، وزاد بعضُهم أن الناظر قد طلب الشرطة، وقال بعضٌ آخر إن رجال الشرطة قد حضَروا بالفعل وحقَّقوا مع زميلهم وأثبَتوا إدانته. وهكذا كثُرت الأقاويل والإشاعات حتى تضاربَت. وجاهر بعضُهم بكراهيته لنلسون خاصةً ولرُوَّاد الفصول عامة، وظلوا كذلك حتى جاء عليٌّ ففرَّق شملَهم، ودقَّ جرس الحصة، فتوجَّه كل تلميذٍ إلى فصله. وبينما كان عليٌّ في طريقه إلى الفصل، أبصَر السائق ينظِّف سيارة المدرسة.

عندما دخل عليٌّ حجرة الدراسة أبدى ملاحظته لمارك، قائلًا: «لا بد أن السائق قد عاد من إجازته هذا الصباح! إن لديه عملًا شاقًّا في إصلاح السيارة وإعادتها إلى حالتها الأولى، بعد الطريقة التي قادها بها نلسون.»

وافق مارك عليًّا وهما جالسان يحلَّان تمرينات الجبر.

بعد انتهاء الدراسة، ذهب مارك إلى الحظيرة، وألقى نظرةً على السيارة على الرغم من عدم وجود السائق هناك. وعندما ذهب ليلعب الكرة، لم يكُن فكره مركزًا في اللعب، وإنما كان مشتَّت الفكر، مشغول البال بأ مورٍ أخرى. ولمَّا انتهى اللعب، أخبره عليٌّ بأن هناك اجتماعًا لرُوَّاد الفصول في مكتب ناظر المدرسة؛ حيث يستأنف التحقيق مع نلسون في الساعة السادسة مساء. ثم سأله علي: «ما رأيك في هذا الموضوع، يا مارك؟ أأنتَ في جانب نلسون أو ضده؟»

فقال مارك، دون اتهام: «لا يُعجِبني موقفُه، ولن أقوم بدَوره ولو أعطيتُ كنوز الدنيا.»

الحقيقة أخيرًا

دقت الساعة دقاتها الست من مساء ذلك اليوم، تعلن موعد اجتماع الروَّاد. ودخل روَّاد الفصول حجرة مكتب الناظر، فوقفوا في صفَّين عن يمين وشمال، بينما جلس الأستاذ بون إلى مكتبه مهمومًا مُمتقَع اللون يتميَّز غيظًا يكاد ينفجر من الغضب. وما هي إلا لحظاتٌ حتى دخل الأستاذ جون يتبعه نلسون، فجلس الأستاذ جون في مقعد إلى جانب مكتب الناظر، ووقَف نلسون أمام الأستاذ بون وقد طأطأ رأسه ووجَّه بصره نحو الأرض حتى لا يلتقي نظره بنظر أحدٍ من زملائه. وخيَّم السكون على الغرفة برهة، قطعه الناظر بقوله: «أصغِ إليَّ، يا نلسون. لقد عوَّلتُ على أن أقوم معك بتحقيقٍ عادل ... ولسوف أمنحك مهلة الإفصاح عن دورك في هذا الموضوع، والدفاع عن نفسك. وإني لأقول لك إن الأدلة ضدك قوية، وكلها تشير إلى أن لك يدًا في جميع السرقات التي وقعَت بالمدرسة؛ لهذا جمعتُ رُوَّاد الفصول ليشهدوا محاكمتك. أما إذا كنتَ لا تزال مصممًا على التزام الصمت وعدم إيضاح الموقف، استدعيتُ الشرطة وسلمتُك إليهم.» ثم أمسك بسماعة المسرَّة وتركَها بُرهة في يده.

ساد السكون المكان، ونظر مارك إلى نلسون، الذي كان لا يزال مطأطَأ الرأس ولم ينبِس ببِنت شَفة. وتكلم الأستاذ جون محاولًا أن يحُث نلسون على تفسير تصرُّفاته الأخيرة. غير أن نلسون ظل على صمته. وساد الهدوء ثانية، وتوتَّرت أعصاب الجميع، وبان الجِد والخوف على وجوههم. ومرَّت لحظات ولحظات ... كان السكون فيها شاملًا، حتى إنَّ مارك كان يسمع دقَّات الساعة التي حول معصمه.

وأخيرًا قال الناظر: «آسفٌ لما سيحدث يا نلسون. لم تُتِح لي حرية التصرف. ليس أمامي إلا أمرٌ واحد ... ومع كل فسأعطيك فرصةً أخرى إذا قرَّرتَ أمام جميع زملائك الروَّاد أنْ لا يد لك في موضوع السرقات إطلاقًا، وبذا أعتبرك بريئًا. وإلا، فكما سبق أن قلتُ لك، سأستدعي الشرطة الآن وأسلِّمك لهم.»

اتجه بصر كل واحد من الموجودين نحو نلسون. وأخيرًا رفع نلسون رأسه، فالتقَت عيناه بعينَي الأستاذ بون، ثم التفَت إلى الروَّاد، فحبس الجميع أنفاسهم انتظارًا لما سيقوله، وكلهم أملٌ في أن ينطق بكلمةٍ تبرئه. فارتعشَت شفتا نلسون وهو يهمُّ بالكلام وعيناه محدِّقتان في الناظر، ثم قال: «أنا ... أنا ... أنا ... لا أستطيع ... أن أعطي كلمة شرف.» اكتأب سائر الموجودين، وأحسُّوا بخيبة أمل، ثم طأطأ رأسه ثانية ... إذن فنلسون مذنب!

تنفَّس الناظر الصُّعَداء، ومد يده ليلتقط سماعة المسرة، وعندما أمسك بها، تحدَّث قائلًا: «أريد مفتش الشرطة.»

وهنا تقدَّم مارك نحو الناظر، وقال: «أتأذن لي في الكلام يا سيدي؟»

نظر الأستاذ بون مدهوشًا إلى وجه مارك المتحفِّز، وقال وهو يبتسم ابتسامةً خفيفة: «ماذا بوسعك أن تقول والموقف جِد واضح؟»

قال: «لديَّ الدليل، يا سيدي، على أن نلسون ليس هو اللص الذي نَجِدُّ في البحث عنه.»

دهِش كل فرد، واتجه ببصره نحو مارك، وأشرق وجه نلسون.

أخذ الأستاذ بون ينتقل ببصره من مارك إلى المسرة، ثم إلى مارك ثانية، وقال: «لنسمع ماذا ستقول.» ثم أعاد السماعة في موضعها.

فقال مارك: «أتتذكَّر، يا سيدي، آثار الأقدام التي وجدناها في المكان الذي سقطَت فيه البطانية من السارق، وكذلك في المكان الذي طارَدْنا فيه سائق السيارة؟ لقد وجدتُ حذاءً يطابق تلك الآثار، وأظنُّني أعرف صاحبه، كما أنني وجدتُ قطعة قماشٍ أخرى تُطابِق التي وجدناها على الأشجار بقرب آثار الأقدام، وأعتقد أني أعرف صاحبها أيضًا ... وجدتُ ذلك الحذاء، وقطعة المنسوج تلك، تحت مقعد سيارة المدرسة اليوم. لم تكونا في ذلك الموضع قبل اليوم، إذن فلا بد أنهما وُضِعا هناك اليوم! لا يُوجَد غير شخصٍ واحد يمكن أن يضعهما هناك اليوم. إنه سائق سيارة المدرسة. وعلى ذلك أقرِّر بأن سائق سيارتنا كان السارق في كل مرة. كان غائبًا عندما حدثَت السرقات. وكان المفروض أن يذهب إلى دار السلام، بيد أنني أظنه بقي في مكانٍ ما قريبٍ من المدرسة.»

توقَّف مارك عن الحديث بُرهة، واتجه ببصره نحو نلسون، فإذا به يومئ برأسه علامةً على الموافقة. وعندئذٍ أكمل مارك حديثه، قائلًا: «عندما ذهبتُ معك، يا سيدي، لنبحث عن نلسون في منزل عمه، سمعتُ صوتًا، قبل أن ندخل الحجرة. وأظنُّني عرفتُ صاحبه. ولمَّا دخلتُ الحجرة، تسلل شخصٌ خارجًا من الباب الآخر. لقد نسيتُ كل شيءٍ عنه حتى سمعتُ نفس الصوت مرةً ثانية. إنه صوت سائق سيارة المدرسة. إذن فقد كان السائق مع نلسون

في بيت عمه.» أصغى كل فردٍ بانتباهٍ إلى حديث مارك. وزالت عن وجه نلسون كآبتُه، وانفرجَت أسارير الناظر؛ إذ أحَسَّ وكأنما حِملٌ ثقيل قد أزيح عن صدره، فقال: «هل كان السائق معك، في الليلة الماضية، يا نلسون؟»

قال: «لقد عرف مارك كل شيء، فلا فائدة من الإنكار إذن. لقد عرف شخصية اللص، وليس بوسعي أن ألتزم الصمت والتستُّر بعد ذلك.»

كان نلسون يتكلم بلهجة الواثق من نفسه، كما كان يتكلم في سابق عهده، فاستطرد يقول: «اللص هو سائق سيارة المدرسة. أنا على يقينٍ من هذا؛ لأنني أنا الذي ساعدتُه.» ثم جال ببصره، بجُرأة حول الغرفة، كما لو كان يريد أن يتحدى من يرغب في معارضته.

فنظر إليه الأستاذ بون، وهو لا يكاد يصدِّق ما يسمع، وقال: «لماذا ساعدتَ السارق في أمرٍ تعرف أنه غير مشروع؟»

قال: «كنتُ أعلم أنه غير مشروع، يا سيدي. ولم أكن راضيًا عن معاونته، ولكنه اضطَرَّني إلى ذلك، ولم أجد مفرًّا من مساعدته.»

توقَّف نلسون عن الكلام بُرهة، غير أن نظرات الأستاذ بون جعلَته يواصل حديثه، فقال: «عمي مَدينٌ لسائق المدرسة بمبلغٍ كبير، مَدينٌ له بمائة جنيه. وقد عجز عن سداده في الموعد المحدَّد، فهدَّدني السائق بأنه سيسجن عمي إن لم أساعده في سرقاته؛ ولذلك اضطُررتُ مُكرَهًا إلى فعل ما كنتُ أعلم أنه إثم، من أجل عمي.»

حَكَّ الأستاذ بون ذقَنه بيده، وقال: «الآن فهمتُ كل شيء. وبالطبع، كان يجب ألا تفعل ذلك مهما كان الأمر. وعلى أية حال، سأستدعي الشرطة للقبض على السائق.»

تناوَل الناظر السماعة وطلَب الشرطة. وبينما هو ينتظر الرد، التفَت إلى مارك، وقال: «إنك وحدَك صاحب الفضل في جلاء غموض هذه القضية، يا مارك. لقد سُررتُ أيما سرور لما قمتَ به من عملٍ بوليسي. وأنصحك بعد أن تتخرج، أن تلتحق بكلية الشرطة لتصبح مخبرًا حقيقيًّا، إذا راقك ذلك.»

ابتسَم مارك مزهوًّا، والغبطة تملأ نفسه لثناء أستاذه عليه.

نظر الأستاذ بون إلى نلسون، وقال: «أما أنت، يا نلسون، فأعتقد أني أستطيع أن أقبل عُذرك، ولو أنك لن تصبح رائدًا بعد ذلك. ولا تنسَ أنك نجوتَ بفضل جهود مارك، فصالِحْه واشكُره.»

صافَح نلسون زميله مارك بحرارة، وشكَره بعباراتٍ رقيقة تنمُّ عن تقديره لعمله، واعترافه بجميله. ولما رأى الارتياح مرتسمًا على وجهَي أستاذَيه ارتاح باله، واطمأن خاطره، وانصرف ليُصلِح ما بينه وبين محمد.

في تلك اللحظة كان شخصٌ ما يخاطب الأستاذ بون في المسرة، وسرعان ما كان رجال الشرطة في طريقهم إلى المدرسة للقبض على اللص. وبذلك أُسدِل الستار على قصة المُخبِرين بمدرسة الحرية.

جرى الناظر والأستاذ جون نحو مصدر الصوت (انظر: المطاردة).

جلس الأستاذ جون في مقعد إلى جانب مكتب الناظر، ووقف نلسون أمام الأستاذ بون وقد طأطأ رأسه (انظر: الحقيقة أخيرًا).

المهرِّبون

سِرُّ جمعة

– «ما هذا، يا جمعة؟ ألا ترى أن كل شيءٍ قد أُعِد في ترتيبٍ مُتقَن؟»

– «عَلامَ تتحدث، يا محمد؟»

– «أما ترى هذا الإعلان؟ إنه إعلانٌ عن رحلةٍ للكشَّافة في نهاية هذا الأسبوع.» ثم أشار محمد إلى إعلانٍ مثبَّت على لوحة الإعلانات بفِناء المدرسة.

كان ذلك عقب الأحداث البوليسية التي شغلَت رُوَّاد الفصول وناظر ومُدرِّسي مدرسة الحرية؛ فقد كان محمد وزميله جمعة، يتجوَّلان في فناء المدرسة. ولما وصَلا إلى لوحة الإعلانات، وقفا يستريحان بجانبها، ويُلقِيان عليها نظرةً قبل أن يدقَّ جرسُ بدء دروس الفترة المسائية، فوقع بصر محمد على ذلك الإعلان.

وأخذ جمعة يقرأ بصوتٍ مسموع: «قرَّرَت لجنة الكشَّافة القيام برحلةٍ كشفية بعد ظهر يوم الخميس المقبل إلى تل لونجوي Lungwe. وعلى أعضاء فرقة الكشَّافة الحضور بالزي الرسمي، وأن يكونوا على استعداد في الساعة الثانية مساء. التوقيع: الأستاذ جون المشرف على الكشافة.»

ثم استطرد يقول: «شيءٌ رائع جدًّا! لقد أخبرني مارك، رئيس فرقتنا، عن هذه الرحلة، ولكنه قال إن الناظر قد لا يوافق عليها؛ إذ يخشى علينا من الفهود التي تكثُر في ذلك التل.»

فقال محمد: «إذا أحضر الأستاذ جون قذَّافته فلا خطر علينا من تلك الضواري، إنه بارعٌ في الرماية.»

قال جمعة: «في هذه الرحلة فرصةٌ للتمرين على اقتفاء الأثَر، لا سيما وأننا سنُختبَر فيه قريبًا.»

فقال محمد: «يمكنك أن تتمرَّن على هذا، يا عزيزي ... أما أنا فسأتمرَّن على التخاطُب بالإشارات؛ لأنني أجيد اقتفاء الأثَر، وينقصني التدريب على التخاطُب بالإشارات.»

وبينما هما يتحدَّثان أقبل نلسون (وقد أسدِل ستارٌ من النسيان على الدور الذي قام به في السرقات)، وانضَم إليهما أمام لوحة الإعلانات، فسأله جمعة: «أتعرف مكان تل لونجوي، يا نلسون؟»

فأجاب: «نعم. أعرف تل لونجوي. ولِمَ؟ إنه تلٌّ كبير يختفي وراء التلال الكثيرة المجاورة للمدرسة. ويُمكِنك أن ترى البحر من فوق قمته.» ثم أشار إلى سلسلة التلال المحيطة بالمدرسة في هيئة نصف دائرة، والتي تفصلها عن السهول الساحلية، ثم استطرد يقول: «تستغرق الطريق إليه ساعةً كاملة خلال الغابة.»

فقال جمعة: «إني أتوق إلى مثل هذه الرحلة! إنني أنتظرها بفارغ صبر، وأرجو أن يكون الطعام وفيرًا متعدِّد الألوان!»

وبينما هم يتحدَّثون عن الرحلة دقَّ الجرس فقطع حديثهم، وانصرف ثلاثتُهم إلى حجرات الدراسة.

بعد أن انتهى التلاميذ من الدراسة، ذهبوا في أصيل ذلك اليوم إلى النهر للاستحمام، ثم أخذوا يتحدَّثون عن الرحلة وهم فرِحون مرِحون. وكان الصغار منهم يقلِّدون الفهود وهي تَقفِز، فينقَضُّ كل تلميذ على الآخر وسط الماء ويُحدِث صوتًا مخيفًا كأصوات الوحوش الكاسرة، ويشتبك كل اثنَين في عراكٍ ثم ينفصلان ضاحكَين وهما يصرخان ويقذفان بعضهما البعض برشاش الماء.

أما جمعة فكان يفكِّر فيما عسى أن يحمل التلاميذ معهم من الطعام في تلك الرحلة، وهل سيستطيع أن يحصُل على نصيبٍ يفوق نصيب زملائه، أو هل سيكون التوزيع عادلًا، ثم أفاق من تفكيره فخلع ملابسه، وعندئذٍ رأى مارك يَسْبح وسط النهر، فأسرع بخلع سرواله، وجرى إلى الشاطئ، وقفز في الماء، وأخذ يضرب المياه بسواعده الفتية القوية حتى وصل إلى مارك، الذي كان يناضل وسط اليم ضد التيار القوي، فقال له جمعة: «ماذا أعدَدتُم لنا من الطعام في هذه الرحلة، يا مارك؟»

استدار مارك ليرى محدِّثه، فإذا به جمعة، فقال له: «أهذا أنت، يا جمعة؟ لقد صدَق ما تكهَّنتُ به من أنك لن تفكِّر في شيء لهذه الرحلة غير الطعام، وعلى أية حال اطمئن، يا عزيزي. أعدَدنا صنوفًا كثيرة بكمياتٍ كبيرة، ولكننا سنحملُها نحن أنفسنا، وسنقطع الأحطاب والأخشاب من الغابة لطَهوِها. وستكون هناك مباراةٌ بين الفرق، ستنال أول فرقة تُعِد الشاي والطعام قبل غيرها جائزةً ثمينة.»

قال هذا وغطَس تحت سطح الماء، فإذا بجمعة يُمسِك بساقه فجأةً ويجُرُّه إلى الأعماق؛ حيث تصارعا في قاع النهر حتى بُهرَت أنفاسهما وشعَرا بالاختناق، فصَعِدا إلى صفحة النهر وهما يضحكان.

فقال جمعة: «هل سيُرافقنا الأستاذ جون، يا تُرى؟»

– «نعم. وسيُحضِر معه قذَّافتَه. هيا بنا نتسابق في السباحة إلى الشاطئ.»

شرع مارك وجمعة يَسْبحان نحو الشاطئ، وكلٌّ منهما يعمل جاهدًا ليصل إلى الشاطئ قبل الآخر، ولكن النضال بينهما كان سجالًا طَوال الوقت، حتى وصَلا إلى حيث يُوجَد الأولاد في المكان الضَّحل. وكان التلاميذ يرشُّون بعضهم بعضًا بالماء، وكسا بعضُهم جسمه بالصابون قرب الشاطئ.

أبصر التلاميذ جمعة ومارك يسبحان بجِد، فأدركوا أنهما يتسابقان، فوقفوا يشجِّعونها بعباراتٍ حماسية، فقال علي: «هذا رائع يا جمعة! إنك تسبح بمهارة يا مارك! هيا أسرِعا، نريد أن نرى مَن منكما سيفوز على الآخر! ليخرُج مِن الماء كل مَن فيه ليُفسِح لهما المكان. هيا، أسرِعا! مرحى! مرحى! اسبَحا بأسرعِ ما يُمكِنكما!»

وصل المتسابقان إلى البَر، فصفَّق لهما الجميع، وجرى البعضُ إليهما مهنئًا بتعادلهما.

وعندما كان مارك يرتدي ملابسه، لاحظ عُلبةً معدنية تسقط من جَيب قميص جمعة، فقال له: «انتَبِه، يا جمعة. لقد سقط من قميصك شيء.» ثم انحنَى ليلتقطه فإذ به عُلبةٌ صغيرةٌ من الصفيح مطلية باللون الأزرق، وقرأ على أحد أركانها «لفائف تَبغ من صُنع لندن»، ثم لاحظ أن العلبة جديدة.

ناول مارك زميله العلبة، قائلًا: «أرى أنها عُلبة لفائف تبغ!» تلفَّت جمعة حوالَيه وهو يأخذ العلبة من مارك، خشية أن يكون قد لمحَها أحد من التلاميذ الواقفين قربه، ثم فتحها وقدَّمها إلى مارك ليرى ما فيها. كانت مليئة باللفائف لم تنقُص واحدة، وكانت مبطَّنة بورقٍ فضي، ثم أخذها منه ثانية، وقال: «سنُدخِّن الليلة سويًّا، يا عزيزي!»

فقال مارك: «شكرًا، يا جمعة. لقد امتنعتُ عن التدخين منذ أن صرتُ رائدًا. لا بد أن أكون قدوةً حسنة لتلاميذ فصلي، وأنت تعلم هذا، ولكن كيف حصَلتَ على هذه العُلبة؟ إنها إنجليزية، غالية الثمن. إنها من نفس النوع الذي كان يدخِّنه الناظر عندما عاد من إنجلترا.»

قال: «أعطانيها رجلٌ أعرفه في المدينة.» ووضع العلبة في جيبه، ثم واصل حديثه قائلًا: «نعم، إنها من النوع الفاخر، ولكني لا أهتم بنوعها طالما هي لفائف تبغ.»

نلسون والأفعى

كان أفراد الكشَّافة ينتظرون مجيء ظهر يوم الخميس في لهفةٍ بالغة، وحان الوقت أخيرًا. وما إن بلغَت الساعة الثانيةَ مساءً حتى كانت جميع الفرق واقفةً في مكان اجتماعها، وقد اصطَفَّت في نظامٍ رائع. وكان منظرهم جميلًا في الأقمصة الكاكي. وزادتهم الخناجر التي وضعوها في أحزمتهم روعةً ورُواء.

بعد لحظةٍ أقبل الأستاذ جون، فأعجِب بترتيب الفرق، وخاطبَهم بقوله: «اسمعوا يا أولادي الأعزَّاء. أودُّ من كل قلبي أن تكون هذه الرحلة موفَّقة حقًّا، وأظنكم تعلمون كل شيء عن المباراة؛ فأول فرقة تُعِد الشاي قبل غيرها تحظى بجائزةٍ أي جائزة، سأخبركم بها فيما بعدُ. وقبل أن نبدأ المسير، لي كلمةٌ تحذيرٍ أحب أن أُلفِتَكم إليها. سيكون معسكرنا في مكانٍ على جانب التل غاصٍّ بالأحراج والشجيرات التي تكمُن فيها الوحوش المفترسة، فكونوا دائمًا في مجموعاتٍ كبيرة ولا تتفرَّقوا آحادًا. بذلك وحده لا يجرؤ حيوانٌ على مهاجمتكم. وإذا التقيتُم بشيء، فعلى رئيس الفرقة أن ينفُخ في صَفَّارته ثلاثَ مراتٍ طوالًا، وثلاث مراتٍ قصارًا، فأكون بجانبكم في لمح البصر ومعي القذَّافة. والآن، هيَّا، انصرفوا.»

تحرَّكَت فرق الكشَّافة مخترقةً ملعب كرة القدم، ثم إلى الغابة الممتدة فوق المنحدرات الواقعة خلف المدرسة، واختارت كل فرقةٍ طريقها إلى أعلى التل، أملًا في أن تصل إلى مكان إقامة المعسكر عند قمة تل لونجوي قبل الأخريات.

كانت فرقة مارك تضُم محمدًا وجمعة ونلسون، وأربعة أولادٍ آخرين. وكان نلسون نائب رئيس الفرقة؛ فمنذ موضوع السرقات وهو صديقٌ حميم لمارك، وعلى ذلك رضي برئاسته عن طيب خاطر.

والتفَت مارك إلى أعضاء فرقته يقول لهم: «سنسير في صفٍّ واحد. وسأمشي في المقدمة، فاتبعُوني.» ثم شرع يضرب في ممَرٍّ ضيق بين الأشجار.

وقال نلسون وكان في المؤخرة: «وحذارِ من أن يطأ أحدُكم أفعى.» ظل الأولاد يتسلقون التل في جِد ونشاط، لا يتوقَّفون إلا لمامًا، ريثما يستريحون ويجفِّفون العَرق من فوق جباههم. وفي أول مرة جلسوا فيها يستريحون أخذ جمعة يتكلم فقال: «ما أثقَلَ ما أحملُه من الطعام! أيرغب أحدكم في شيء من المانجو؟ فلا أظنني مستطيعًا حَملَه أكثر من ذلك.»

كان محمد مستلقيًا على الأرض إلى جانبه، فقال: «كنتُ أخشى ألا يكون معك ما يكفيك من الطعام، ولكنك، الآن، تريد أن تتخلَّص من الطعام! وعلى أية حال، أعطني واحدةً آكلها الآن. ستكون في معدتي أخفَّ مما هي على ظهرك.»

أخرج جمعة من حقيبته ثماني ثمرات، وكانت كبيرةً جدًّا، فوزَّعها على أفراد جماعتهم، فأطفأ عصيرُها الحُلوُ ظمأهم.

فقال بيترو، وهو من صغار التلاميذ: «شكرًا جزيلًا، يا جمعة.» وبعد أن أكل ثمرتَه وارتوى بها، قذف بنواتها وسط الأحراج، فما إن وقعَت النواة على الأرض حتى انبعَث فحيحٌ وصفير.

فصاح جمعة قائلًا: «ما هذا؟ إني أسمع فحيحَ ثعبان!»

نهض بيترو من مرقده، وجلس يقلِّب بصره في المكان الذي رمى فيه النواة، فسمع الفحيح يزداد ارتفاعًا.

فقال محمد: «حِذرَكم! أيها الرفاق.»

وصاح بيترو: «إنها حيةٌ رقطاء.» وأشار إلى الحشائش النامية أمامه.

في تلك اللحظة أيضًا، أبصر جمعة الأفعى، ورأسها العريض يهتز يَمْنة ويَسْرة فوق جسمها الغليظ. وكانت المسافة بينها وبين بيترو لا تعدو ثلاثَ أقدام.

وتسمَّر بيترو في مكانه لا يقوى على الحركة. وقد ركَّزَت الأفعى بصرها عليه، وأخذَت تُخرِج لسانها ذا الشعبتَين من فمها وتُدخِله في سرعةٍ عجيبة تُنبئ عن الشر، ثم تحفَّزَت لتنقَضَّ على الغلام الصغير المسكين.

وفجأةً أحَسَّ جمعة بلفحة هواءٍ تمسُّ وجهه، ولَمح وميض نصلٍ معدني أمام رأس بيترو. وفي لمح البصر رأى نلسون يفترش الأرض بينه وبين بيترو، وقد امتدَّت ذراعه تحمل خنجرًا حادًّا بجانب رأس الحية.

فصاح نلسون: «قتلتُها، قتلتُها!»

شاهد جمعة الحية مقتولةً فعلًا، ورأسها مفصولًا تمامًا عن جسمها. نهض نلسون من مكانه. وفي هذه اللحظة فقط أفاق الغلمان من غَشيتهم، وبدءوا يتحدثون من فَورهم.

فقال محمد: «ما أروعَك! يا نلسون! هذه بطولةٌ نادرة. اندفَعتَ في الوقت المناسب لنجدة بيترو، وكانت سرعتُك سببًا في إنقاذه من لدغةٍ محقَّقة وموتٍ أكيد. أما أنا فلم أستطع الحركة. لقد شلَّت أعضائي رؤية الحية الضخمة!»

وقال جمعة: «هذا هو عينُ ما حدَث لي أنا أيضًا.»

وقف نلسون ينفُض الغبار عن ثيابه، وينظِّف السكين من دم الحية، ويقول: «لم أفعل شيئًا غريبًا. رأيتُ أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ بيترو أن أرتميَ فوق جسم الأفعى لأمنعها من الحركة. ولحسن الحظ كان الخنجر في يدي.»

فقال مارك: «هذا تواضُع، يا نلسون! إنك تصوَّر الأمر سهلًا، في حين أنه عملٌ رائع ... وبسالةٌ تُحمَد عليها. الحقُّ إن إقدامك كان فذًّا وسرعتك بالغة ومخاطرتك بنفسك إلى هذا الحد منقطعة النظير؛ فلو أخطأتَ موضع رأس الأفعى لكان فيه حتفُك.» ثم التفَت إلى بيترو يسأله: «هل أنت بخير يا صديقي؟»

فأجاب بيترو متهدِّج الصوت: «نعم، حمدًا الله، وشكرًا لنلسون.» كان لا يزال يرتجف ذُعرًا، ولكنه خَجِل أن يبدو أمامهم خائفًا.

فقال مارك: «حسَن! إذن هلُموا بنا ننصرف من هذا المكان قبل أن يأتي رفيق الحية ويجدنا هنا.» ثم سار في الممَر الضيق المتعرِّج يتبعُه أفراد فرقته.

صراعٌ مع النمر

وصلَت فرقة مارك إلى المكان الذي سيُعسكِرون فيه على منحدرات تل لونجوي؛ حيث يُمكِن رؤية السهل الساحلي المنبسط حتى البحر، الذي يبعُد عنهم بعشرة أميال. وكانت أشعة الأصيل تسقط كالتبر على صفحة ماء البحر الصافي، فيُخيَّل إلى الرائي أنها النُّضار أذيب في الفضة. بيد أن الوقت لم يكن ليسمَح لهم بالوقوف لمشاهدة جمال الطبيعة؛ إذ كانت فرقةٌ أخرى قد سبقَتْهم إلى هناك. وسرعان ما أمر مارك رفاقه بالاحتطاب وإشعال النار والبدء بإعداد الطعام؛ فقد بدأَت المباراة لمعرفة مَن سيُعِد طعامه قبل الآخر. وما هي إلا دقائقُ حتى وصلَت الفرقتان الأخريان. ودوَّى جانب التل بصوت سقوط الفئوس على الأخشاب وصياح الغلمان. وانطلَق الأولاد بزيِّهم الكاكي منتشرين في كل موضع. بعضهم يُحضِر الماء من الينبوع القريب، وبعضهم يُحضِر الحطب اللازم لإشعال النار، والبعض يجثو على الأرض ينفُخ النيران المتمرِّدة كي تلتهب بقوة. وعلى مقربةٍ منهم وقف الأستاذ جون تعلو شفتَيه ابتسامة الغبطة والرضى، وفي يده بندقيَّته على أهْبة الاستعداد لأي خطرٍ يقع.

ثم صاح مارك، قائلًا: «أحضِر الوقود، يا جمعة! فهذه النار لا تشوي صرصورًا، مِن المؤكَّد أنها لا تكفي لطهو وجبةٍ كاملة.»

فقال جمعة: «ها أنا ذا آتٍ!» قال ذلك بينما كان يتوغَّل بعيدًا في الغابة الكثيفة يبحث عن أغصانٍ جافَّةٍ سَهْلة القطع، وسار في حَيْطة وحَذَر، فلم تبرح مخيِّلتَه مغامرةُ فرقته مع ذلك الأفعوان، فلما رأى كومةً كبيرة من الأغصان الجافة المتساقطة أسفل بعض الشجيرات، أخذ يقلِّب بصَره حوالَيها بإمعان، ثم قال لمحمد الذي كان يرافقه: «دُر حول الأغصان قُبالتي، وراقب ما يحدُث عندما ألقِي حجرًا وسطها.»

فلما ألقى الحجر توقَّع أن يسمع حفيفَ ثعبان، ولكنه بدلًا من ذلك سمع زمجرةَ حيوانٍ بين الشجيرات، زمجرةً لم يكن ليتوقَّعها إطلاقًا.

أخذ جمعة حجرًا آخر، وألقاه حيث ألقى الحجر الأول، وقال: «ماذا هناك؟ أترى شيئًا، يا محمد؟»

فأجاب: «لم أرَ شيئًا حتى الآن، ولكنَّ هناك جسمًا ضخمًا بين تلك الشجيرات.» وتوقَّف عن الكلام بُرهة، ثم واصل يقول: «أتظُن هذا الشيء نمرًا؟»

فقال جمعة: «لقد نسيتُ كل شيء عن النمرة. ربما كان ذلك. وعلى أية حال، اذهب ونادِ الأستاذ جون، وسأبقى هنا أراقب المكان.»

جرى محمد عائدًا إلى المعسكر، بينما ظل جمعة واقفًا في مكانه لا يتحرَّك، وقد ثبَّت بصَره على ذلك الجسم الذي رآه خلف الأغصان، وأمسك بالفأس في يده على استعدادٍ ليضرب بها الحيوان إن خرج من مكمنه. وما هي إلا لحظاتٌ حتى حضر المدرس بقذَّافته يصحبُه ستة من الصبيان جذبَتْهم إشاعة العثور على نمرٍ قُرب المعسكر.

وتساءل الأستاذ جون: «هل رأيتَ شيئًا يا جمعة؟»

– «حتى الآن، لم أبصِر شيئًا، يا سيدي، هل أرمي حجرًا بين الأشجار؟»

– «انتَظِر قليلًا.» ثم التفَت إلى الأولاد، وقال: «أما أنتم أيها الغلمان، فقِفوا في دائرة حول الأشجار. وعندما آمركم، اصرُخوا جميعًا بأعلى صوتكم، واقذفوا أحجارًا وسط الشجيرات. بهذا يخرج أيُّ حيوانٍ يكون مختبئًا هناك.»

وفي الحال اصطف الأولاد في دائرة حول الأشجار، بينما وقف الأستاذ جون مستعدًّا بالبندقية، ليُطلِق النار على أي حيوانٍ يظهر من بين الأحراج، ومرَّت لحظات قال بعدها: «هيا، اصرُخوا!»

ما إن قال هذا حتى دوَّى المكان بصيحةٍ جماعيةٍ عالية، وانهال وابلٌ من الأحجار أسفل الأشجار، فانبعثَت زمجرةٌ غاضبة، ثم سمعوا خشخشة الأغصان والأوراق عندما تحرَّك وراءها جسمٌ ضخم. وفي الحال رفع الأستاذ جون بندقيته إلى كتفه، وصوَّبها نحو الحيوان، ووضَع إصبعَه حول الزناد، وانتظر في لهفة بينما صاحت دائرة الأولاد صيحةً أخرى، وأمطَرَت المكان بسيل من الحجارة — وفي تلك الآونة زأر الحيوان زأرةً مدوِّية اهتَز لها التل. وفجأةً تكسَّرَت الأغصان، وظهَر من بينها عينان غاضبتان تقدَحان شررًا.

فصاح جمعة، يقول: «ها هو ذا، إنه نمر.» وكان قُبالته تمامًا. عندما سدَّد الأستاذ جون قذَّافته ناحية النمر، وأطلَق منها رصاصة. اندفع النمر من بين الأغصان الجافة،

فلم تُصِبه الرصاصة، فاستقر واقفًا عن يسار جمعة مباشرةً وزمجَر، ثم انطلق يَعْدو في الطريق المؤدِّي إلى المعسكر.

ولَّما رأى الأستاذ جون أن قذيفته لم تبلُغ هدفها، خفَض بندقيته وصاح: «خلفه، أيها الأشبال.»

انطلق الأولاد جميعًا في كتلةٍ واحدة خلف النمر يصيحون بأعلى صوتهم إنذارًا لزملائهم بالمعسكر أن يكونوا على حذَر. وكان عليٌّ هناك يتولى الإشراف نيابةً عن الأستاذ جون، فلما سَمِع الصيحات الأولى أمَر الأولاد بترك النار وما فوقها، والوقوف بسرعة في دائرة حول المكان الذي ضرَبوا فيه خيامهم. ولَّما أبصر النمر يجري نحوهم، أمر الواقفين في طريقه أن ينتَحوا جانبًا، حتى يستطيع أن يدخل في ساحة المعسكر الذي يُحيط به بقية الغلمان. ودخل النمر وسط تلك الساحة يَقْلب في طريقه قُدور العظام وهو يقفز في ذعر ووحشية، ويتلفَّت حوالَيه.

فصاح عليٌّ في الأولاد: «صيحوا بأعلى أصواتكم!»

فلما سمع النمر الصِّياح من كل جانب، جثَم خلف صخرةٍ عاليةٍ ضخمة بوسط المعسكر، وزمجر في غضب.

وفي هذه اللحظة أقبل الأستاذ جون وجماعتُه، وفي الحال أمر الأولاد بالصياح، وسار هو ببطء ناحية النمر والبندقية عند كتفه على أهْبَة الانطلاق. فأدار النمر وجهه نحوه، واستجمع قواه ليقفز ويهجُم عليه. ولَّما صار الأستاذ جون على بُعدٍ قريب من الوحش، سكت الأولاد وأنصَتوا لِيَرَوا ما سيحدُث بعد ذلك.

ثم توقف عن السير، وسدَّد البندقية نحو النمر، وضغَط على الزناد، وفي اللحظة نفسها اندفع النمر يريد الانقضاض عليه، وارتفع في الهواء، ولكن الرصاصة أصابَتْه، فسقط على الأرض يتلوَّى ويزأر، فأطلَق عليه الأستاذ جون قذيفةً أخرى، وعندئذٍ سكنَت أعضاؤه، وتمدَّد فوق الأرض جثةً هامدة.

ساد السكون برهة، ثم صاح الأولاد جميعًا في صوتٍ واحد، قائلين: «مرحى! مرحى!» وهم يندفعون نحو أستاذهم لتهنئته بهذا الفوز المبين، ولِيَرَوا النمر المقتول.

فقال علي: «إنا لَنَدين لك بالشكر، يا سيدي؛ فقد أنقذتَنا جميعًا.» وتقدَّم نحوه مصافحًا.

فقال الأستاذ جون: «هذا وداعٌ للسيد نمر، ولكنه أفسَد علينا المسابقة. وليس من العدل في شيء أن نستَمِر فيها الآن.»

فقال مارك: «إنك لعلى حق، يا سيدي؛ إذ أضاعت فرقتي وقتًا طويلًا في البحث عن النمر. وربما كان لنا الحق في المكافأة لاكتشافِنا إياها.»

فقال الأستاذ جون: «طبعًا أنت ترى أن اقتراحك معقول، بيد أن رؤساء الفرق الأخرى لا يَرونَه كذلك ... وهم لن يوافقوا على ذلك ... كلَّا! سنعقد نفس المباراة مرةً أخرى. وعلى أية حال، من منكم لديه الآن قدحٌ من الشاي لي؟ إني أشعُر بظمأ بعد قتل ذلك الوحش.»

وما هي إلا لحظاتٌ حتى كان أمام الأستاذ أربعة أقداحٍ من الشاي؛ إذ صمَّمَت كل فرقة على أن تقدِّم له قدحًا ... فشَرِبها جميعًا.

مارك يعثُر على كهف

بعد تناوُل الشاي والطعام، صَحِب مارك فرقتَه، وسار بها يتجوَّلون فوق التل، قائلًا: «هذه فرصةٌ طيبة للتمرين على اقتفاء الأثَر، أيها الرفاق! سنذهب إلى حيث وجدنا النمر، ونُحاوِل اقتفاء آثار أقدامه لمعرفة المكان الذي جاء منه، والطريق التي سار فيها.»

يمَّمَت الفرقة شطر الأحراج التي كان النمر مختبئًا فيها، وشَرَعوا يبحثون حولها عن آثار أقدامه، فانتشَر الغلمان كلٌّ يبحث في منطقةٍ حول الشجيرات. ولَمَّا كان محمد يتوق إلى الحصول على شارة اقتفاء الأثَر، فقد فحَص منطقتَه بعنايةٍ فائقة، حتى إنه كان يجثو على ركبتَيه أحيانًا، ويحبو على يدَيه ورجلَيه أحيانًا أخرى، وهو يُمعِن النظر في الأرض. وسرعان ما كلل مجهوده بالنجاح؛ إذ عثَر على آثار أقدام النمر متجهةً نحو الأعشاب، فاقتفاها عائدًا بضعة أمتارٍ بعيدًا عن الشُّجيرات.

وعندما تأكَّد من أنه وجَد الأثَر الحقيقي لأقدام ذلك النمر، نادى مارك، قائلًا: «أقبِل يا مارك! لقد عثرتُ على آثار الأقدام هنا، ويبدو أنها آتيةٌ من أعلى التل.»

فأسرع إليه مارك، وأمعَن النظر في الآثار، وأماراتُ الرضى ترتسم على مُحيَّاه: «هذا عملٌ رائع حقًّا، يا محمد! إنها بالتأكيد آثار أقدام النمر. هلُموا أيها الرفاق. هيا بنا نبحث عن المكان الذي جاء منه.»

انكبَّت الفرقة كلها تتبع الأثر. وكانت تفقد الأثر كلما وصلَت إلى أرضٍ صُلبة. غير أن الصبيان كانوا يعثرون عليه ثانيةً بعد البحث الطويل في المنطقة المحيطة. وأخيرًا فقَدوه عند حافة رابيةٍ صخرية.

فقال مارك: «لا يزال أمامنا متسع من الوقت للقيام ببحثٍ أخير. ربما يكون هناك كهفٌ ما بقرب هذه المنطقة، كان النمر يتخذه مخبأً له.»

انتشر الأولاد حول المنطقة يبحثون عن الكهف المزعوم. وكان مارك نفسه يبحث معهم بين كُتل الصخور الضخمة في وادٍ صغير، فإذا به يسمع صوت صَفَّارة الأستاذ جون يستدعيهم إلى المعسكر؛ إذ كانت الشمس قد آذنَت بالمغيب ويخشى على الأولاد خروج الوحوش من مخابئها تسعى إلى رزقها إذا ما حَلَّ الظلام.

ما إن استدار مارك ليعود أدراجه إلى المعسكر هو وفرقته، حتى لاحظ فجوةً سوداء بين الصخور عند قاع الأخدود، فجرى مسرعًا نحوها ليراها عن كثَب.

لقد كانت كهفًا، يختفي مدخلُه وراء الصخور العالية والأشجار النامية أمامه. وكان صغيرًا نوعًا ما، فدخل مارك ذلك الكهف. ولَّما توغل داخله وقد شمله ظلامٌ دامس، أوقَد عود ثقاب. ولشدَّ ما كانت دهشتُه عندما رأى الكهف أوسَع مما كان يتصوَّر. وقبل أن يخبو ضوء الثقاب، لَمح شيئًا أبيضَ مُربَّعًا في أحد جوانب الكهف، فأوقَد عودَ ثقابٍ آخر، واقترب من ذلك الشيء، فوجده صندوقًا خشبيًّا، وحاول زَحزحتَه فإذا به ثقيلٌ جدًّا … تمعَّن مارك في أرض الكهف فرأى آثار صناديقَ أخرى مماثلة له، بجانبه تمامًا.

ولكنه لم يجد الوقت الكافي ليفحص المكان بدقة ومعرفة ما بداخل ذلك الصندوق، فقد سمع الصَّفَّارة ثانية؛ ولذلك خرج في الحال، وجمع أفراد فرقته وكانوا على مقربة منه، ثم قادهم إلى المعسكر.

بات أعضاء الكشافة ليلتَهُم على جانب تل لونجوي داخل خيامهم الصغيرة. ولَّما طلَع النهار وأشرقَت الشمس بأشعَّتها الذهبية ونشَرَت تِبْرها في المكان، كان الأولاد قد أعدُّوا الشاي والطعام بعد القيام بتمارين الصباح. ولَّما تناولوا طعام الإفطار، أخذوا يجولون في الأماكن المحيطة بالمعسكر، ليُلقوا نظرةً أخيرة على التل وعلى الأودية والسهول أسفله والبحر الممتد بعيدًا، ثم جمعَهم الأستاذ جون بصَفَّارته، فوقفَت كل فرقةٍ في مكانها الخاص، وأمَرَهم بالرحيل، فساروا عائدين إلى المدرسة.

في أثناء العودة إلى المدرسة، كان بال صاحبنا مارك مشغولًا بالتفكير فيما رأى داخل الكهف. لم يُخبِر أحدًا بما اكتشفه — لأنه كان يرغب في الوقوف على سِر ذلك الصندوق الذي وجده. لماذا وُضِع هذا الصندوق هناك في ذلك الكهف … وهو مكانٌ بعيدٌ بعيد عن العمران … ومن الذي أتى به إلى ذلك المكان؟ وماذا بداخله؟ هل هو شيءٌ ثمين جعل صاحبه يُخفيه هناك؟ ثم هناك آثارُ صناديقَ أخرى، فأين اختفت، ومَن الذي أخذها؟ كل هذه الأسئلة دارت برأس مارك، وجعلَته يَسْرح بفكره وهو في طريق العودة … ولَّما لم يجد إجابةً تشفي غليله، قرَّر أن يعود إلى الكهف مرةً أخرى وحده … علَّه يعرف السر.

اكتشاف اللغز

أخذ مارك يفكِّر في ذلك اللغز، ويُقلِّب الأمر على كل وجه ... ثم رأى أن يُشرِك معه زميله محمدًا في زيارته للكهف، ليكون له عونًا في ذلك المكان المُوحِش.

وانفرد بمحمدٍ جانبًا، وقال له: «أيروقك أن نذهب سويًّا إلى التل حيث كنا في هذا الصباح؟ لقد عثَرتُ على كهفٍ هناك جديرٍ بالزيارة.»

فأجاب محمد: «هذا عينُ ما يسُرُّني، يا مارك!» وانفرجَت أسارير وجهه بشرًا وحبورًا.

وبعد تناوُل الغداء، بدأ مارك ومحمد يتسلَّقان التل، ثم اتجها نحو الموضع الذي اكتشَف فيه مارك الكهف حتى بلغاه، فدخلا. وفي هذه المرة كان مارك قد أحضر معه مصباحَه الكهربي، فأضاءه، وقال لمحمد: «أترى هذا الصندوق، ما رأيك فيه؟»

ذهب زميله إلى الصندوق، وأخذ يتحسَّسه ويتأمَّله وينظر إليه من كل ناحية فيه، ثم قال: «أرى بضع كلماتٍ قد كُتبَت على أحد جوانبه. وأشم رائحةً غريبة تنبعثُ منه ولكنها مألوفةٌ لي. إنها تكاد تذكِّرني بشيءٍ أعرفه.»

فقال مارك: «وإنها لمألوفةٌ لي كذلك. هيا بنا نفحص المكان خارج الكهف علَّنا نعرف كيف جيء بهذا الصندوق هنا.»

لم يجد الفتَيان مشقةً في البحث؛ فقد وجدا أثرًا مطموسًا بعض الشيء، أسفل مدخل الكهف مباشرة، الذي تُخفيه الشجيرات والأعشاب.

فقال محمد: «رويدَك يا مارك. دعنا نُنعِم النظر في هذه الآثار ... إنها آثار عجلات سيارة! ولا شك أنها سيارة نقل، لأن عجلاتها عريضة!»

قال: «نعم، لا بد أنها السيارة التي حُملَت فيها الصناديق التي كانت بالكهف بجانب ذلك الصندوق، ولكن لماذا يُخفون هذه الصناديق في مثل هذا المكان؟»

فقال محمد: «ربما كان هناك مَن يستعمل هذا الكهف مخزنًا خاصًّا لبضائعه!»

اقتفى الكشَّافان آثار عجلات السيارة لمسافةٍ طويلة أسفل سفح التل، حتى بلغا الطريق العام المُوصل إلى المدينة. عندئذٍ لم يجدا فائدةً من تتبُّع الآثار؛ لأنها اختلطَت بغيرها من الآثار المماثلة، فعادا ثانيةً إلى المدرسة، وقد ارتاح مارك لهذا الاكتشاف، ولكن فكره كان لايزال مشغولًا، يجدُّ في البحث عن علَّة لهذه الظاهرة الغريبة.

وبينما كان مارك جالسًا في فصله في اليوم التالي، خطَرَت بباله فكرة تفسِّر لغز الكهف والصناديق وآثار عَجلات السيارة القريبة من الكهف.

خطَرَت الفكرة بباله في أثناء حصة التربية الاجتماعية التي كان يُدرِّس فيها الأستاذ بون. كان مارك لا يُصغي تمامًا إلى ما يقوله الناظر؛ فقد شغَلَه لغز الكهف عن الدرس بعض الشيء. وكان الناظر يشرح الوسائل التي جمعَت بها الدولة إيراداتها، وكيف أن جزءًا كبيرًا من إيرادات الدولة يأتي من رسوم الجمارك على الواردات.

فرفع نلسون إصبعَه يسأل: «وأي الأشياء يدفع عنها المستوردون رسومًا؟»

فقال الناظر: «كل شيءٍ تقريبًا؛ الآلات، والتبغ، والملابس وغير ذلك.»

– «ولكن، أين تُدفع هذه الضرائب، يا سيدي؟»

– «تُدفَع في الموانئ الكبيرة، كدار السلام، وهذا هو السبب في تحريم إدخال بضائعَ واردة من الخارج إلا عن طريق هذه الموانئ.»

وهنا تنبَّه مارك، وهبطَت عليه فكرة ... فكرة تفسِّر اللغز الذي حيَّره؛ فالكهف الذي رآه لا يبعُد كثيرًا عن البحر. وهو في مكانٍ منعزل عن الساحل، فهل تُنزِل السفنُ البضائع عند الساحل دون أن تدفع عنها رسومًا، ثم تنقلها سيارةٌ إلى الكهف؛ حيث تختفي فترةً عن عيون الرقباء، ثم تُباع؟ ... أخذ يفكِّر في هذا الأمر؛ فالصندوق الذي وجده بالكهف يشبه الصناديق التي رآها في المدرسة عندما وردَت فيها أجهزة وأدوات المعمل من إنجلترا. لا بد أن ذلك الصندوق واردٌ أيضًا من الخارج، من وراء البحار. وقد أخبرنا الأستاذ بون أن الحكومة تحصِّل ضريبة على التبغ ... آه ... التبغ رائحةٌ مألوفة حقًّا ... وعندئذٍ تذكَّر مارك أن تلك الرائحة التي شمَّها منبعثةً من الصندوق قريبةٌ من رائحة التبغ ... إذن فهو تبغ.

رفع مارك إصبعَه، سائلًا الناظر: «هل إذا أحضَر أحدٌ من الناس بضائعَ من الخارج، ولم يدفع عنها ضرائب، هل يمكنه أن يبيعها؟»

– «نعم، بكل تأكيد. يُمكِنه أن يبيعَها بنفس السعر الذي تُباع به مثيلاتُها التي دُفعَت عنها ضرائب. وبهذا يجني أرباحًا طائلة. وهذا هو التهريب، الذي تحرِّمه الدولة ... وللمهرِّبين عقوباتٌ صارمة.»

جلس مارك ساكنًا بقية الدرس، ولكنه ظل يفكر في الأمر الذي اكتشَفه، فقال لنفسه: «مِن المؤكَّد أنني اكتشَفتُ وكرًا لبعض المهرِّبين. ينبغي أن أذهب مرةً أخرى وألقي نظرةً على الكهف، ولكن يجب أن أعجل ... حتى لا يُفلِت المهرِّبون.»

عودة إلى الكهف

أتيحَت لمارك فرصةٌ ثانية لزيارة الكهف؛ ففي اليوم التالي أعلن أستاذ العلوم أنه سيذهب مع التلاميذ بعد الظهر في رحلة إلى التلال المجاورة للمدرسة، لجمع الأزهار والنباتات التي تنبُت هناك، والتي يحتاجون إليها في دراستهم.

وبينما أخذ التلاميذ يتسلقون التل، كان مارك يفكِّر في الكهف. وكان في حاجةٍ إلى من يساعده. ولمَّا لم يكن محمد من بين تلاميذ فصله، فقد رأى أن يستعين بنلسون؛ لأنه الزميل الوحيد الذي يُمكِنه الاعتمادُ عليه، فقرَّر أن يُفضيَ إليه سرًّا بذلك الموضوع.

فذهب إلى نلسون، وانتحى به جانبًا، وقال له: «أيمكنك أن تساعدني في أمر، يا نلسون؟»

فأجاب نلسون على الفور بقوله: «نعم، بكل تأكيد. وأنت تعلم أني أتلهَّف إلى تأدية خدمةٍ لك.»

أَسَرَّ مارك إلى نلسون باكتشافه للكهف، وبما وجدَه فيه، وبآثار عَجلات السيارة، وبالفكرة التي جالت بخاطره، ثم قال: «يجب أن أذهب اليوم إلى الكهف وألقِي عليه نظرة. وعلى ذلك فأنا لا أستطيع جمع النباتات التي يريدها الأستاذ ... فهلَّا جمَعتَ لي يا نلسون مثل ما تجمع لنفسك؟»

– «بكل سرور، ولو أنني أفضِّل المجيء معك. وقد كان في نيتي الاختفاء بعيدًا عن التلاميذ لأعِد لنفسي كوبًا من الشاي. أما الآن فلن أجد متسعًا من الوقت لذلك؛ إذ عليَّ أن أجمع مجموعتَين من العيِّنات.»

جرى مارك يتسلق التل في سرعة، وابتعد عن رفقائه دون أن يفطن أحدٌ إلى ذلك. وعندما اقترب من الكهف، أخذ يمشي في حذَر. سمع صوتًا خافتًا من بعيد، صوتًا يصدُر رنينُه من قاع التل، ومن الناحية المواجهة للبحر، فوقف يُنصِت، فإذا به صوتُ سيارةٍ

قادمة نحوه. فاختبأ بسرعة وسط الأحراج في مكان يستطيع منه أن يراقب مدخل الكهف. وبينما هو في مكمنه، سمع صوت السيارة يقترب، فخفَض رأسه في مخبئه.

وعندما سمع محرِّك السيارة يقف، استَرَق النظر من بين النباتات التي تُخفيه عن الأعين، فرأى سيارةً عتيقة، واقفة بقرب مدخل الكهف. وقد جلس رجل في مقعد القيادة، بينما تسلل اثنان إلى الكهف. أخذ مارك يُنعِم النظر في وجه السائق. كان رجلًا بدينًا، ذميم الخلقة، لم يَرَه من قبلُ، ولكي يستطيع التعرُّف عليه، ظل يحدِّق في وجهه بضع ثوانٍ، وما هي إلا لحظاتٌ حتى عاد الرجلان الآخران من الكهف يحملان الصندوق الثقيل الذي رآه أول مرة، وبينما هما يضعانه في السيارة، ترك السائقُ البدينُ مقعده، ونزل ينظُر حوله في جميع الجهات. ثم اتجه ببصره ناحية الأحراج التي اختبأ مارك خلفها. وكان مارك على يقينٍ من أن عينَي ذلك الرجل السمين الثقيل تستطيعان النظر خلال الفتحات التي بين أوراق الأشجار، فانكمَش وتراجع إلى الخلف قليلًا في مخبئه، وظل قابعًا فترةً خُيِّل إليه أنها دهر، حتى تحرَّكَت عينا الرجل في جهةٍ أخرى، وعندئذٍ تنفَّس الصُّعَداء، وعادت إليه طمأنينتُه.

صَعِد الرجلان بعد ذلك إلى السيارة، وصَعِد السائق خلف عَجلة القيادة، ثم استدار بالسيارة فسارت هابطةً أسفل التل.

وبقي هو في مكمنه حتى خفَت صوت السيارة، وتلاشى في ذلك الفضاء الواسع، فخرج من بين الشُّجيرات، وذهب إلى الكهف فوجده خاويًا كما توقَّع، ليس به سوى آثار الصناديق. ومهما كان الأمر، فقد أفاد شيئًا؛ إذ شاهَد بنفسه الرجلَين وهما ينقلان الصندوق من الكهف إلى السيارة، ورأى السائق، ورأى السيارة، وتعرَّف على شكلها تمامًا. بيد أن الرجال لم يُخلِّفوا وراءهم دليلًا ينمُّ عن العمل غير المشروع الذي يقومون به، كما لم يتركوا شيئًا يدُل عن شخصيتهم.

وعندما دار على عقبَيه ليخرج من الكهف، اصطدَمَت قدمه بشيء أحدَث صوتًا معدنيًّا، فانحنَى والتقَطه وخرج به ليتفحَّصَه في الضوء.

«ما هذا؟! إنه عُلبةٌ مليئة بلفائف التبغ، ومن نفس النوع الذي رأيتُه يسقُط من جمعة، لا بد أن أسأله عن مصدرها مرةً ثانية.»

ولَّما رجع إلى زملائه على الجانب الآخر للتل، كان نلسون ينتظره ومعه حزمةٌ كبيرة من النباتات، فسأله في لهفة: «هل وجدتَ شيئًا جديدًا؟»

قال: «نعم، آمل أن أكون قد وُفِّقتُ في معرفة شيءٍ جديد، على الأقل.» وأخبره بقصة السيارة العتيقة، وبعثوره على عُلبة لفائف التبغ.

فقال نلسون: «اسمع، يا مارك، أنا الذي سأسأل جمعة، في هذه المرة، عن مصدر هذه اللفائف. لقد سألتَه أنت مرةً من قبل، فإن عُدتَ إلى سؤاله ربما ساورَتْه الشكوك وأنذَر المهربين.»

قال: «هو كذلك، يا نلسون. هلُم بنا إلى المدرسة، حتى لا يعُدُّونا غائبين.»

تناول نلسون طعام العَشاء في تلك الليلة، وبعد أن انتهى من ذلك شاهَد جمعة يخرج من المطعم، فتَبِعه، وقال له في لهجةٍ عابرة: «تُرى؟ ماذا سيفعل الأستاذ جون بجلد النمر الذي ساعدناه في سلخه؟»

فقال جمعة: «ألا تعلم، يا نلسون، أنه أهداه إلى المدرسة لتصنع منه مِيدَعةً لحامل الطبل الكبير؟»

قال: «هذا كرمٌ بالغ منه!» وسكت قليلًا، ثم قال: «وأنتَ كريمٌ أيضًا ... أعطني لِفافة تبغ.»

فقال جمعة على الفور: «ومن أنبأك أن معي لفائف تبغ؟ ثم إنك لا تدخِّن!»

قال: «هيا، أخرِج اللفافة ... أنا أعرف أن معك لفائفَ تبغ. لستُ رائدًا، الآن. وأنت تعرف هذا.»

وضع جمعة يدَه في جيبه، وأخرج العُلبة الزرقاء في تردُّد، ثم أخرج منها لِفافة، وناوَله إياها.

فقال نلسون في سذاجة: «كم كلَّفَتك هذه العُلبة؟»

تلفَّت جمعة حوالَيه ليتأكد من أنهما وحدهما في ذلك المكان، ثم همَس قائلًا: «لايهمُّني أن أخبرك بأمر هذه اللفائف، يا نلسون، رغم أنني لا أخبر به أحدًا غيرك. هذه العُلبة أعطانيها صديقٌ لي بالمدينة. لقد أخذها بدَوره من صديقٍ له يعمل على إحدى البواخر.»

فقال نلسون: «أيُمكِنه أن يُحضِر لي بعضًا منها؟»

قال: «يمكنك أن تطلب منه إذا ذهبتَ إلى المدينة.» فقال نلسون في براءةٍ ظاهرة: «ولكني لا أعرفه.» قال جمعة: «إنه سائق سيارة، يعرفه أغلب الناس، وهو رجلٌ ضخمٌ بدين، يميل إلى مصادقة الناس ... ولِمَ تُجهِد نفسك في البحث عنه؟ إن عمَّك يعرفه حق المعرفة.»

اكتفى نلسون بهذه المعلومات، وانصرف ليبحث عن مارك، فلما التقى به، قال له: «حصَل جمعة على لفائف التبغ من سائقِ سيارةٍ بدين.»

دهِش مارك، وقال: «من سائقِ سيارةٍ بدين؟ لا بد أنه الرجل الذي رأيتُه عند الكهف اليوم. لقد تأكَّدتُ الآن من أنهم يُهرِّبون لفائف التبغ الإنجليزية، دون أن يدفَعوا عنها الضريبة الجمركية المقرَّرة.»

فقال نلسون: «هذا صحيح. وربما كانوا يهرِّبون أشياءَ أخرى أيضًا.»

زومبي المهرِّب

لم يَدرِ مارك ماذا يفعل حيال ذلك الأمر؛ فطالما كان الكهف خاليًا من الصناديق، فلا دليلَ لديه يمكن أن يستند إليه ضد المهرِّبين. وعلى ذلك لم يجد فائدةً من إبلاغ الأمر إلى الشرطة. وبعد مناقشة الموضوع مع محمد ونلسون قرَّر أن يلتزم الصمت حتى يعثُر على الدليل.

وقبل أن ينقضي الأسبوع أعلَن علي، رئيس فرق كرة القدم، أنه سيرسل فريقًا، بعد ظهر يوم الخميس، ليلعب في مباراة بالمدينة. واختار مارك ونلسون ليكونا ضمن ذلك الفريق، فعمل مارك جهده على أن يضم محمدًا إلى الفريق ليقوم بتخطيط أرض الملعب؛ إذ كان يعتقد أن بمقدور محمد أن يساعده في الحصول على بعض المعلومات من المدينة.

كان موعد المباراة بين فريق مدرسة الحرية وفريق نادي المدينة في منتصف الرابعة.

وفي الطريق إلى الملعب، همس نلسون إلى مارك قائلًا: «العَب جيدًا، يا مارك؛ فإن عليًّا يقول إننا إذا ربحنا فسيسمح لنا الناظر بالتخلف في المدينة ساعةً كاملة، نستطيع خلالها جمع المعلومات التي نريدها عن السائق البدين ورفقائه.»

بذل مارك ونلسون جهدًا كبيرًا أمام فريق نادي المدينة، وكانت المباراة عنيفة وسريعة. وانتهى الشوط الأول بهزيمة فريق المدرسة بهدفٍ واحد ... فدَبَّ اليأسُ في نفس مارك ونلسون، وأحسَّا بأن الفرصة قد تضيع منهما.

وفي فترة الاستراحة، خرج الأستاذ جون إلى الملعب يُحيِّي تلاميذه ... ويُشجِّعهم، ويبعَث في نفوسهم الثقة، ويحثُّهم على الانتصار والغلبة؛ لأنهم لا يقِلُّون عن فريق النادي مهارة.

ثم أخذ عليٌّ يُحذِّر رفقاءه ويُنذرهم بالحرمان من النزهة الموعودة إذا لم ينتصروا أخيرًا.

ما كاد الأستاذ جون يعلن استئناف اللعب، حتى هجم فريق المدرسة على مرمى خصمهم هجوم الصاعقة، فقذف مارك الكرة إلى نلسون، الذي قذفها بدوره في قوة وعنف، فانطلقَت كالقذيفة تخترق مرمى نادي المدينة. فصفَّق المتفرجون عاليًا، وهنَّأ أعضاء الفريق بعضهم بعضًا على تساويهم بهذا الهدف مع فريق النادي.

بعد أن قذف قلب الهجوم الكرة، جرى بها لاعبو النادي نحو مرمى المدرسة، ولكنَّ عليًّا صدها وأعادها تُدوِّي إلى وسط الملعب تقريبًا. وكان مارك في الجناح الأيمن، فوصَل إلى الكرة قبل غيره، ومرَّرها إلى نلسون الذي كان يجري وسط الملعب ليلتقطها منه، فاعترض طريقه لاعبٌ كان وحده بتلك الناحية، فزاغ منه نلسون، وقذف الكرة بعنف، فانطلقَت كالسهم المارق داخل مرمى النادي. وبذا فازت المدرسة بهدفٍ واحد.

كان النضال على أشده في الدقائق الأخيرة، ولكن المدرسة لم تَحظَ بأي هدفٍ بعد ذلك، غير أنها استطاعت أن تصُد جميعَ هجماتِ فريق النادي. وما إن انطلقَت صَفَّارة الحكَم تُعلِن انتهاء اللعب، حتى استلقى مارك على الحشائش منهوك القوى، مُردِّدًا: «حمدًا لله! لقد بذلتُ كل ما في وسعي! بيد أنني أكاد أموت من فَرْط الإعياء.»

فقال نلسون: «ألستَ على استعدادٍ الآن للقيام ببعض الأعمال البوليسية؟ أمامنا ساعةٌ واحدة نعود بعدَها إلى المدرسة.»

نهَض مارك مسرعًا، وتأهَّب للعمل من جديد، وأخذ يسأل عن محمد، فرآه مقبلًا، يشُق طريقه نحوهما وسط الزحام.

سار محمد ونلسون ومارك إلى مكانٍ هادئ من الملعب، ووقفوا بعيدًا عن بقية اللاعبين والمتفرجين، فقال محمد: «في أثناء اللعب، وأنا أتنقَّل بين المتفرجين، لاحظتُ رجلًا ضخم الجسم دميم الخلقة بين جموع الناس، وقد ترك سيارتَه في ناحيةٍ قرب الملعب، فخُيِّل إليَّ أنه السائق الذي رأيتُه عند الكهف.»

فقال مارك متلهفًا: «وأين هو الآن؟ ربما كان هو الرجل نفسه!» أشار محمد إلى الطريق خلف ملعب الكرة، قائلًا: «أترى تلك السيارة الخضراء الواقفة هناك؟ إنه ثالث رجلٍ واقف خلفها، ذلك الرجل البدين.»

أنعَم مارك النظر في السيارة الواقفة حيث أشار محمد، ثم قال: «إنها نفس السيارة العتيقة التي حملَت الصندوق من الكهف. سأراقبها، وألقي نظرةً ثانية على السائق السمين، ولعلِّي أرى رفيقَيه كذلك. كما أريد منك، يا نلسون، أن تذهب لمقابلة عمك، وتسأله عما إذا كان يعرف ذلك الشخص البدين.»

أسرع نلسون بالانصراف تاركًا زميلَيه يراقبان السيارة القديمة. ولَّما وصل بيت عمه، ودخل عليه وجده جالسًا على مقعد في الشرفة، يُداعب النوم جفنَيه، فحيَّاه، ثم أخذا يتحدثان في موضوعاتٍ شتى. وجرَّهما الحديث إلى الرجل السمين وسيارته العتيقة، فسأل نلسون عمه، عما إذا كان يعرف ذلك الرجل.

فقال الرجل العجوز: «نعم، أعرفه. وكل امرئ في هذا البلد يعرفه. إنه زومبي الذي يشتغل بنقل الأخشاب، وله حانوتٌ صغير، وقاربٌ يستعمله في النقل المائي.» ... ثم سكَت لحظة، وأردَف يقول: «من الخير أن يتعرَّف الناسُ بمثل هذا الرجل — الناس الذين يدخِّنون البانجو — فهو موردُ هذا المخدِّر.»

فقال نلسون: «وهل يدخِّن كثيرٌ من الناس البانجو في هذه الأيام؟»

فأجاب عمه: «أظن أن الكثيرين بدءوا يدخِّنونه منذ زمنٍ قريب. كما أن أناسًا عديدين أدمنوا شرب الخمور القوية أيضًا. ومن المحتمل أنهم يحصُلون عليها من نفس ذلك الرجل البدين زومبي. وقد حُكِم عليه بالسجن في السنة الماضية.»

ظل نلسون يتحدث بعض الوقت مع عمه، ثم استأذن وانصرف ليجتمع بمارك، فلما التقى به، أخبره بما علمه عن الرجل من عمه.

فقال مارك: «هذا يؤكِّد لي أن الرجل السمين الذي رأيتُه هو زومبي بعينه، وأنه يشتغل بالتهريب؛ فهو يُحضِر البانجو ولفائف التبغ وغيرها إلى هذا البلد، ويُخفيها في الكهف، ثم يبيعُها في المدينة.»

فقال محمد: «إنك لعلى حق، يا مارك! وأنا معك في هذا الرأي.»

– فقال نلسون: «هذا رأي يبدو سليمًا. والآن، كل ما علينا أن نفعله هو أن نعرف كيف يأتي بهذه الأشياء من الخارج إلى الكهف.»

فقال مارك بعد تفكير: «الحق معك، يا نلسون ... انظر، إن عليًّا ينادي للعودة إلى المدرسة. وها هي سيارتنا بحوار ملعب الكرة ... هيا بنا.»

انضَم الثلاثة إلى بقية زملائهم، وركبوا سيارة المدرسة، فعادت بهم.

كيف يُهرِّبون

ظل مارك وأصدقاؤه عدة أيام لا يجدون وقتًا لعمل شيءٍ حيال المهرِّبين، فيما عدا مرةً واحدة عندما حصل على إذنٍ من المدرسة بالخروج للنزهة فوق التلال المجاورة؛ حيث سمَح له أستاذه جون بذلك ... فذهب إلى الكهف يُلقي عليه نظرة.

ولكن لم تُكلَّل رحلته هذه بالنجاح؛ إذ وجد الكهف خاويًا كما رآه آخر مرة، لم يتغيَّر فيه شيء.

وعندما عاد إلى المدرسة مساء ذلك اليوم وجد محمدًا ينتظره، ويحمل إليه أنباءً جديدة، وسار به محمد إلى ركنٍ منعزل خلف المعمل، وقال له: «كنتُ أفكر في الطريقة التي تُهرَّب بها البضائع إلينا، وكيف تُنقَل إلى الكهف، فخطَرَت ببالي فكرة.»

فقال مارك: «إليَّ بها!»

قال: «يبدو لي أن لفائف التبغ الإنجليزية تؤخذ من بعض السفن الكبيرة التي ترسو في الميناء. ولعلك تعلم أن المسافة بين الميناء والكهف لا تزيد على خمسة عشر ميلًا. وعادةً ما تحمل جميع هذه البواخر كمياتٍ من لفائف التبغ. ولَمَّا كان لزومبي هذا قاربٌ ينقل به الأخشاب من الجهات القريبة من هنا إلى الميناء، فلا بُد أنه يحصل، بطريقةٍ ما، على البضائع، من البواخر عندما يكون في الميناء. ومن المحتمل أن يكون له أصدقاءُ من بحَّارة تلك السفن يساعدونه في الحصول على ما يحتاج إليه، فيضعه في قاربه دون أن يفطن إليه أحد، طالما هو متعوِّد على الذهاب إلى الميناء كل يوم في قاربه. ثم ينقل البضائع بهذه الطريقة إلى موضعٍ ما على الساحل، ومن هناك يحملها في السيارة إلى الكهف.»

فقال مارك: «هذا تفسيرٌ جِد معقول. وإن تفكيرك ليبدو علميًّا، يا محمد!»

بعد أن شرح محمد لصديقه رأيه في طريقة التهريب، أخرج من جيبه قصاصةً من جريدة، وقال: «ليس هذا كل شيء؛ فهذه قصاصة من صحيفة صدَرَت في الأسبوع الماضي،

الأسبوع الذي رأيت فيه الصندوق بالكهف، تقول إن باخرةً كبيرة وصلَت إلى الميناء قادمةً من إنجلترا، وستبقى بالميناء بضعة أيام ريثما تفرغ شحنتها. وإن تاريخ وصولها سابقٌ لرحلة الكشَّافة بثلاثة أيام. وعلى هذا كان لدى زومبي فرصةٌ للحصول على بعض البضائع من تلك الباخرة، ثم هناك شيءٌ آخر؛ فعندما أطلَعتَني على عُلبة اللفائف، لاحظتُ بعض كلماتٍ كانت مطبوعةً على جانبها طُمسَت بطلاءٍ من نفس اللون، ولكن الكتابة الأصلية كانت لا تزال ظاهرة. والكلمة التي علقَت بذاكرتي كانت اسمًا للباخرة، المذكور بهذه الصحيفة.»

فقال مارك: «إنك لرائع، يا محمد! وإنه لذكاءٌ تُحسَد عليه. إن ذلك يُثبِت أن زومبي حصَل فعلًا على الصندوق من الباخرة التي رست بالميناء في الأسبوع الماضي. كما يُثبِت دون جدال أنه لم يدفع عما فيه ضريبةَ الواردات وإلا لَمَا أخفاه في الكهف.»

أمسك مارك بيد محمد النحيلة وهزَّها بحرارة إعجابًا واستحسانًا، فابتسم محمد سرورًا والخجل يرتسم على وجهه بسبب ما سمعه من إطراء مارك، ثم قال: «هلُم بنا نبحث عن نلسون!»

وانصرف الزميلان من هذا الركن المنعزل، وسارا ميمِّمَين شطر حجرات النوم. وما كاد مارك يصل إلى أول الفِناء حتى سمع صوتًا يناديه.

ولم يكن المنادي غير علي، فلما التقى به، قال له: «أيمكنك أن تحضُر اجتماعًا لرؤساء فرق الكشَّافة، الآن، يا مارك؟»

قال: «يسُرني ذلك.» ثم التفَت إلى محمد وقال: «معذرة، يا محمد. سأراك بعد الاجتماع.»

وبينما هما سائران إلى حجرة الكشافة، قال عليٌّ مازحًا: «أية مغامرةٍ عجيبة كنتَ تبحثها مع محمد الآن، يا مارك؟»

فقال مارك: «لا شيء.» وهو يعجَب من دقة ملاحظة علي.

معسكر نهاية الأسبوع

دخل عليٌّ ومارك حجرة الكشَّافة، فوجدا الأستاذ جون وبقية رؤساء الفرق منتظرين. ولم يضيِّع الأستاذ جون وقتًا في شرح الغَرض من الاجتماع.

فقد قال بغير مقدِّمات: «لا تزال أمامنا مسابقة إعداد الطعام، وستكون في يوم الخميس القادم. إنه أنسب يوم يُمكِننا أن نقوم بها فيه ... كنا نستطيع أن نذهب إلى تل لونجوي مرةً ثانية، بيد أننا لا نرغب في أن تلتقي بنمرٍ آخر؛ ولذلك اقترح الأستاذ بون ناظر المدرسة، أن تكون رحلتُنا في هذه المرة إلى شاطئ البحر، وأن نقيم معسكرنا على الساحل. وقد تكرَّم بإعارتنا سيارة المدرسة لتساعدنا في الذهاب إلى هناك، وصرَّح بأن نبيت بالمعسكر، فهل لأحدكم اعتراضٌ على أي شيءٍ في هذه الرحلة؟»

وافق الجميع على الرحلة، واستصوَبوا فكرتها. وعلى هذا قرَّر الأستاذ جون القيام بها عقب الانتهاء من دروس يوم الخميس مباشرة.

وهنا حدَّث مارك نفسه: «يا لها من فرصة! فلربما كان بوسعنا فحص الشاطئ بحثًا عن المهرِّبين ومعرفة طُرقهم.»

وخرج من الاجتماع، وذهب ليلتقي بنلسون ومحمد، اللذَين ابتهجا أيما ابتهاجٍ بهذه الرحلة.

فقال مارك: «أتَذكُر، يا محمد، أننا اقتفَينا أثَر عَجلات السيارة حتى الطريق العام؟ هذا الطريق يؤدِّي إلى البحر، وسنقيم معسكرنا قرب الموضع الذي يتقابل فيه ذلك الطريق بالساحل. لا بد أن المهرِّبين يُنزِلون بضاعتهم بقرب ذلك المكان.»

ثم أخبر نلسون برأي محمد، وبتفسيره لطرق التهريب، فقال نلسون: «إنه تفسيرٌ على جانبٍ كبير من الصواب، وأعتقد أنهم يُنزِلون البضائع ليلًا. علينا أن نسأل سكان الساحل علَّنا نهتدي إلى شيء!»

فقال مارك: «أنا على يقينٍ من أننا سنحصل على معلوماتٍ جديدة، ولو أنه لن يكون لدينا متَّسعٌ من الوقت لنسأل الناس شيئًا ... وإن الجرس يناديناِ. سنستأنف الحديث في هذا الموضوع فيها بعدُ.»

وجاء يوم الخميس، فابتهج بمجيئه كل أفراد الكشَّافة. فأعَدُّوا خيامهم، وأدوات الطهي التي سيأخذونها معهم ليضَعوها في السيارة، وتهيَّأَت الفرق للرحيل. وكانت فرقة مارك في الطليعة؛ إذ عُهِد إليها باختيار مكان المعسكر. وبدا الطريق طويلًا مشمسًا، ولم تُفلِح الأشجار في أن تُظِلَّهم من أشعة الشمس المُحرِقة.

سار أفراد الكشَّافة بضعة أميال يُنشِدون كثيرًا من الأناشيد، وكان جمعة يوقِّع الألحان على نايه، وبذلك مَر الوقت دون أن يُحِسُّوا بمشقة السير، ولكن ما إن صار الطريق متربًا شاقًّا حتى خيَّم الصمتُ على الأولاد، وساروا وكأن على رءوسهم الطير، وخُيِّل إليهم أن الطريق لن ينتهي ... وأخيرًا لاح البحر من بعيدٍ أزرقَ لامعًا يتألق من خلال نخيل البلح، فبعَث النشاطَ في أبدانهم والبهجةَ في نفوسهم.

وما كاد مارك يلمح البحر حتى صاح في فرقته: «ها هو البحر قد ظهر جميلًا في الأفق يُنبئُنا بأننا قد وصلنا بحمد الله، ولم يَبقَ أمامنا غير مسافةٍ قصيرة!»

أحَسَّ الأشبال بقوةٍ جديدة تسري في أجسادهم، فأسرعوا خطوهم وكلهم أمل في نزهةٍ سعيدة، فلما بلَغوا قرية الصيادين عند نهاية الطريق شرع نلسون وجمعة يُنشِدان أغنيةً بهيجة. وكان أطفال القرية وعجائزها وشيوخها ينظرون إليهم في إعجاب وهم يمُرون بجوار أكواخهم المتواضعة، ويسيرون بين عمالقة النخيل الممتدَّة حتى شاطئ البحر.

وصلَت الكشافة إلى آخر القرية، فقال مارك: «أظن أن أنسب مكانٍ نُعسكِر فيه هو تحت هذه الأشجار.» وأوقف فرقته، ثم التفَت إلى نلسون وقال له: «عُد إلى القرية، يا نلسون، وابحث لنا عن مكان مياه الشرب.» ثم غمَز إليه بعينه، قائلًا: «ودُر حول القرية قليلًا!»

فهم نلسون ما رمَى إليه زميله، فانصرَف لتوِّه.

ثم تقدَّم بيترو الصغير إلى مارك، وقال: «أتسمح لنا بالاستحمام الآن، يا مارك؟ إن العَرق قد بلَّل أجسامنا، والغُبار ملأ عيوننا ورءوسنا وأنوفنا!»

وصاح سائر الأولاد: «نعم، بربِّك يا مارك! نريد أن نستحم لإزالة ما علق بأجسامنا من غبار.»

فقال مارك: «لكم ما تشاءون، على شرط ألا تمكُثوا في الماء فترةً طويلة.»

ما كاد التلاميذ يسمعون هذا حتى أنزل كل واحدٍ منهم، صغيرًا وكبيرًا، أمتعتَه عن كتفَيه، وخلع ملابسه، ووضعها جانبًا، ثم انطلق يعدُو نحو ماء البحر البارد. كان الجميع يتسابقون، وكان منظرهم وهم يخرجون من بين أشجار النخيل الباسقة ليلتَقُوا بالرمال البيضاء الساخنة كأنهم قطيعٌ من الغزلان المستنفرة تَفِر من حيوانٍ مفترس. وقد تقدَّمهم جمعة بسيقانه الطويلة وخطواته الواسعة، فبلَغ الماء قبل الجميع، وألقى بنفسه وسط الأمواج المُزبِدة. ثم نزل الأولاد الصغار، يصيحون ويقفزون فرحًا وجذلًا.

فصاح بيترو وهو يَثِب وسط الأمواج مع محمد: «ما أجملَ البحر، ما أحلى البحر، ما ألذَّ البحر!»

وقال محمد: «لا غرابة في أن سِرْنا إليه كل هذه المسافة الطويلة! إنه ليستحق أن تأتي إليه من أقصى مكان!» ثم غطَس تحت الماء البارد، وغاب عن الأنظار.

رأى بيترو هذا، فحذا حَذْوه في الحال، واتجه نحوه في قاع البحر حيث شرعا يتصارعان، ولكن سرعان ما ظهرا على سطح الماء، وأخذا يَسْبحان في سرعة ونشاط، وكان بيترو يجدُّ في السباحة خوفًا من محمد الذي طَفِق يلاحقة ليَغطِس به ثانيةً إلى القاع. وكان جمعة يراقبهما من بعيد، فانطلَق يَسْبح بقوة خلف بيترو حتى أمسك به. وعندئذٍ وصل محمد لينتقم من بيترو، فقبض عليه، وغاص به إلى الأعماق.

وهكذا ظل الأولاد في لهوهم ومرحهم فوق صفحة الماء الزرقاء ... ولم تَمضِ غير دقائق حتى نفخ مارك في صَفَّارته يستدعيهم للبدء في إعداد المُعسكَر، فلما سمع التلاميذ صوت الصفَّارة أخذوا يحتَجُّون ويَستعطِفون مارك طالبين السماح لهم بالبقاء في الماء فترةً أخرى.

أما بيترو فلم يعُد إلى الشاطئ كبقية زملائه، بل أخذ يعوم مبتعدًا عنه، متوغلًا وسط البحر.

ولكن مارك كان حازمًا في أوامره. وسرعان ما كان أفراد الكشَّافة في طريقهم إلى المعسكر، فعادوا إلى حيث تركوا أمتعتَهم في ظل الأشجار. وكان نلسون قد رجع من القرية ووقف ينتظرهم.

قال نلسون: «ذهبتُ إلى القرية، يا مارك، وسألتُ أهلها عن طريق الماء العذب، فإذا به في آخرها.» ثم أومأ إليه فانتحى به جانبًا، وهمس إليه بقوله: «وجدتُ قارب زومبي! إنه راسٍ هناك بين عيدان الغاب محملًا بالأخشاب. بيد أنه على استعدادٍ للقيام برحلة إلى الميناء هذا المساء. وقد أخبرني رجلٌ عجوز بأن هذا القارب يملكه زومبي».

وقف مارك يفكِّر بُرهة، ثم قال: «حاوِل أن تُراقِب ذلك القارب، يا نلسون، فإن تحرَّك من مرساه فأسرِع بإخباري. سأكون مشغولًا هنا في المعسكر؛ ولذا أعهَد إليك بمراقبته.»

قال: «حسن! سأراقبه دون أن يراني أحد.» ثم عاد إلى القرية.

بيترو وسمكة القرش

وصلَت بعد ذلك الفرق الثلاث الأخرى، واحدةً إثر أخرى، ثم جاءت سيارة المدرسة محمَّلةً بالمُعدَّات؛ ولهذا شُغل مارك عن زومبي وقاربه وحركاته ... شُغل بتنظيم المعسكر وإعداده.

وقام أعضاء الكشَّافة بنصب خيامهم، ودَق أوتادها في الأرض تحت أشجار النخيل الباسقة، التي امتدَّت فروعُها في السماء عاليًا، واختير مكانُ إعداد الطعام، وأحضِر الماء العذب من الموضع الذي دلهم عليه نلسون، وبذلك أُعِد كل شيء. وبدأ الأستاذ جون يشغَل أعضاء الفرق بشتى أنواع الألعاب والمباريات. ورَبحَت فرقة مارك كثيرًا منها؛ ولذا تاقت أكثر من ذي قبل إلى رِبحِ جائزة مباراة الطهي، التي كانت تلي ذلك في برنامج الرحلة.

قبل إعلان بدء مسابقة الطبخ، جمع مارك أفراد فرقته فلاحظ غياب بيترو، فسألهم عما إذا كان أحدُهم يعرف مكانه، فأجابوا جميعًا بالنفي، ولكنَّ كشَّافًا من فرقة أخرى سمع السؤال فقال له إنه رآه يذهب صوب البحر منذ دقائق.

فقال مارك: «اذهب، يا جمعة، وابحث عنه على شاطئ البحر، أو في الماء.»

ما كادت تمُر لحظات على انصراف جمعة حتى سمعوه يصرُخ عاليًا خلف الأشجار طالبًا النجدة، فهَبَّ مارك وبعض الأولاد ينطلقون نحو الشاطئ، فرأَوْا جمعة واقفًا على الشاطئ يُلوِّح بيدَيه في عنف، ويصرُخ بأعلى صوته.

فابتدَره مارك بقوله: «ماذا جرى يا جمعة؟»

ومَدَّ محمد رقبتَه إلى أعلى، وقال: «انظر! إن جمعة يشير إلى شيء في وسط الماء.»

أمعَن مارك النظر في الماء، فإذا به يرى شيئًا أسودَ مثلَّث الشكل يخرج من الماء ثم يغوص، فصاح هلعًا يقول: «إنها سمكة القرش!»

وقال محمد: «انظر هناك! إن بيترو يسبح في بقعةٍ عميقة الغَور.»

وقال تلميذٌ آخر: «إن سمكة القرش تتحرَّك نحوه!»

فقال مارك: «أسرِع، يا محمد! ونادِ الأستاذ جون ليأتي ببندقيته.» ثم جرى هو نفسه على الرمال نحو المكان الذي وقف فيه جمعة عند حافة البحر.

كان جمعة ينادي بيترو أن يعود، ولكن الولد الصغير كان بعيدًا جدًّا، فلم يسمع تحذيره.

ولَمَّا وصل مارك ورفقاؤه إلى الشاطئ، صرخوا جميعًا في صوتٍ واحد، قائلين: «أسرِع بالعودة يا بيترو! أسرِع! أسرِع!»

لَمَّا سمع بيترو الصُّراخ، استدار نحو مصدره، وعندئذٍ رأى زعنفة سمكة القرش السوداء. لم تكن تبعُد عنه كثيرًا، فأخذ يرفع يدَيه خوفًا ورعبًا.

وقف مارك قلقًا وجلًا، وقال: «إنه في خطر، سأذهب لنجدته.» وخلَع قميصه بسرعة، وقفَز وسط الأمواج، وأخذ يَسْبح بقوة حتى اقترب من بيترو الذي كان يصرُخ مذعورًا، ويُلوِّح بذراعَيه.

رأى الواقفون على الشاطئ سمكة القرش تقترب شيئًا فشيئًا من بيترو، فقال جمعة: «أرجو أن يأتي الأستاذ جون مسرعًا بقذَّافته؛ فلن يستطيع مارك قتال سمكة القرش. إنه وبيترو في خطرٍ داهم. هيا بنا نصرُخ معًا بأعلى أصواتنا، عسى أن تخاف السمكة من الصراخ فتبتعد!»

وفي هذه اللحظات كانت سمكة القرش تحوم حول بيترو ليس بينه وبينها غير مسافةٍ قصيرة، ولم يُفزِعها صُراخ الأولاد. وكان مارك يقتربُ بسرعة من بيترو، ولكنه كان يقتربُ في الوقت نفسه من ذلك الوحش البحري.

في تلك الآونة جاء الأستاذ جون يجري مسرعًا فوق الرمال حتى بلغ الشاطئ، فقال جمعة: «أسرِع بربِّك يا سيدي! ستهجُم سمكة القرش على بيترو!»

فقال الأستاذ: «هدوءًا، هدوءًا!» ورفع بُندُقيَّتَه على كتفه، ولكنه سرعان ما خفَضَها ثانية، وقال: «من الصعب جدًّا إطلاق رصاصةٍ على السمكة. إنها قريبةٌ جدًّا من الولدَين، حتى إن الرصاص ليُصيبُهما كما يُصيب السمكة.»

ثم وصل مارك إلى بيترو وقد كَفَّ عن التلويح بذراعَيه. غير أن سمكة القرش كانت تَسْبح حولهما في دوائرَ تضيق باطِّراد، وعلى بُعدٍ قريبٍ جدًّا. وكانت ترفع أنفها القبيح فوق الماء في كل مرة تُواجهُهما. واستطاع الأولاد الواقفون على الشاطئ أن يرَوْا أنيابها الحادَّة القوية، بيضاء تلمع في ضوء الشمس.

اندفع القرش فجأةً نحو الولدَين يريد افتراسهما لقمةً سائغة، فبُهت الأستاذ جون والأولاد وهم واقفون على الشاطئ ذعرًا وفزعًا. ولم يكن في مقدورهم أن يفعلوا شيئًا أو

يحرِّكوا ساكنًا، وهم يرَوْن أنياب القرش المُفزِعة تلمع وتبرق تحت وهج الشمس. وما هي إلا لحظةٌ حتى صار القرش فوق الولدَين، فإذا مارك يرفع يده ... ولمع فيها شيءٌ هوى به على جنب سمكة القرش، فاستدارت فجأةً وابتعدَت عنهما تطلب النجاة.

انتهز الأستاذ جون فرصةَ ابتعاد السمكة عن الغلامَين قليلًا، فرفع قذَّافته إلى كتفه، وأطلق رصاصتَين متعاقبتَين.

غاصت سمكة القرش، بينما طفا مكانها بقعةٌ كبيرةٌ حمراء فوق سطح الماء.

فصاح جمعة: «لقد أصبتَها، يا أستاذي!»

قال: «أظنُّني فعلتُ ذلك ... انظر! ها هي قد ظهرَت ثانية.» وأشار إلى مثلثٍ صغيرٍ أسود يتحرَّك بسرعة إلى عرض البحر، ثم أردف قائلًا: «اذهب، يا جمعة، وساعد مارك في إحضار بيترو إلى هنا.»

وثَب جمعة إلى الماء، وأخذ يَسْبح بقوة حتى بلغ مكانهما. وكان بيترو يرتجفُ من شدة الذعر. وما هي إلا بضعُ دقائقَ حتى عادوا جميعًا إلى الشاطئ سالمين.

فقال الأستاذ جون: «مرحى! مرحى! هذه بسالةٌ فذَّة، يا مارك، ولكن، كيف أبعَدتَ السمكة عندما اقتربَت منكما؟»

فرفع مارك يده ليُريَه ما فيها ... كان بها سكين. ثم قال: «بينما كانت السمكة تدور حولنا، تذكَّرتُ أنني لا أزال مرتديًا سروالي، وكان بجيبه خنجر الكشَّافة، فاستلَلْتُه استعدادًا لما عساه يحدث. ولمَّا اقترب القرش منا، كانت يدي مرفوعة، فطعَنتُه بالخنجر، وأعتقد أنني جرحتُه. وعلى أية حال، تَركَنا وانصرف دون أن يمسَّنا بسوء، والحمد لله.»

فقال الأستاذ جون: «هذا عملٌ رائع! يا مارك! أحسنتَ التصرُّف، فنجوتَ أنت وصديقك. مِن حُسن الحظ أنك لم تخلَع سروالكَ قبل النزول إلى البحر!»

نظر مارك إلى بيترو وقد استلقى على الرمال منهوك القوى، وسأله بقوله: «أأنت بخير الآن يا بيترو؟»

فأجاب: «نعم: أشكرك أبلغَ الشكر وأعمقَه. وفي نفس الوقت أبدي أسفي لإزعاجكم.»

فقال مارك: «ماذا حدا بك أن تذهب للسباحة وحدك؟»

قال: «لم أكن أعرف أنَّ في ذلك خطرًا. وأنا نادمٌ على مخاطرتي هذه، ولن أكرِّرها مستقبلًا.»

علَّق الأستاذ جون على ذلك، بقوله: «ليكُن في هذا عبرةٌ ودرسٌ لكل فردٍ منكم، أيها الأشبال. لا يُخاطِرنَّ أحدُكم بنزول البحر وحده؛ فقد لا يلازمنا الحظ مرةً أخرى.»

مراقبة في الليل

عندما عاد جميع أفراد الكشَّافة إلى المعسكر، جمع الأستاذ جون رؤساء الفرق، وقال لهم: «يبدو أننا لن نستطيع القيام بمسابقة الطَّهو الليلة؛ فالوقت متأخر. وإزاء هذا سنُضطَر إلى تأجيلها ثانية، وسوف نقوم بها غدًا.»

فسأله علي: «وماذا عن نار المعسكر؟ هل سنُوقِدها الليلة؟»

قال: «نعم، يُمكِننا إيقادُها الليلة. سنبدأ بها في حوالي الساعة الثامنة.»

رجع مارك إلى فرقته وأخبر زملاءه بتأجيل المسابقة، فلم يكترثوا لهذا الأمر في قليل أو كثير؛ لأنهم كانوا يتناقشون في مغامرة سمكة القرش. وبينما هم يُعِدون الطعام، ذهب مارك في جولةٍ إلى القرية ليلتقي بنلسون، فوجده مختبئًا وراء بعض الأعشاب عند شاطئ البحر، يقوم بالمراقبة.

فقال مارك: «هل من جديد، يا نلسون؟»

فأجاب: «نعم! غادر قارب زومبي مرساه منذ ساعتَين تقريبًا. وكان به ثلاثة رجال. وعندما أقلع، ذهبتُ إلى القرية.»

فقال مارك: «وهل علِمتَ شيئًا؟»

– «كنتُ أتحدث إلى رجلٍ عجوز لوت السنون كفَّه على العصا، فعلمتُ أنه يعرف عمي. فسألتُه عن الموعد الذي يعود فيه قارب زومبي عادة، بعد أن يُفرِغَ شحنتَه من الأخشاب في الميناء. أيُمكِنك أن تخمِّن، يا مارك، متى يعود؟»

– «أعتقد أنه يعود بالليل.»

– «تمامًا! إنه يعود دائمًا بالليل، ويأتي محمَّلًا بالبضائع. وقد أخبرني ذلك العجوز أن سيارةً تكون بانتظاره دائمًا لتحمل شحنته.»

فقال مارك معلقًا: «تزداد الريبة في نشاط زومبي كلما علمنا شيئًا جديدًا. أتظن أن القارب سيعود الليلة؟»

قال: «لا أدري؛ فقد أخبرني الرجل المُسِن أن القارب يعود أحيانًا بعد بضع ساعاتٍ من مغادرته مرساه، وأحيانًا بعد يومٍ أو يومَين.»

فقال مارك: «يجب أن نكون على استعدادٍ لعودته الليلة. يجب أن نتناوب المراقبة، ولكنه لن يعود قبل العاشرة؛ إذ تبلغ المسافة إلى الميناء عشرين ميلًا في الذهاب، ومثلها في العودة. هيا بنا نذهب إلى المعسكر لتناول طعام العَشاء.»

تناول كل فرد، في ذلك المساء، وجبةً شهية، فكانت كمية الأرز وفيرة، واللحم كثيرًا لذيذ الطعم، في مرقٍ طيِّب النكهة، ثم شربوا الشاي، ووزَّع عليهم الأستاذ جون بعض الكعك … ولمَّا فرغوا من طعامهم أحاطوا بنار المعسكر يَصطَلونها وقد وضع كلٌّ منهم بطانيةً على كتفَيه.

أقيم حفل سمَر بعد العشاء، فأنشِدَت الأناشيد الوطنية، ورقص الأولاد رقصاتٍ قومية، وأدَّى بعضهم تمثيليةً رائعة. وفي وسط هذا الضجيج، جلس مارك ونلسون سويًّا يتحدثان عن قارب زومبي وما عساه يحدُث في تلك الليلة. وسَرَّهما أنه في الساعة العاشرة، أطفِئَت النار، وأمَر الأستاذ جون كل فرد بالذهاب إلى خيمته للمبيت.

اتفق الصديقان على أن يتولى مارك مراقبة البحر من العاشرة إلى الواحدة بعد منتصف الليل، ثم تأتي نوبة نلسون، فاختبأ مارك وراء بعض الأعشاب المواجهة لمرسى القارب، والتفَّ ببطانية، وجلس على الأرض انتظارًا للحظة الرهيبة.

مَرَّ الوقت بطيئًا بطيئًا. وانطفأَت الأنوار في أكواخ القرية واحدًا تلو الآخر، وخفتَت الأصوات فلم يكن يتناهى إلى سمعه إلا طنين البعوض وخرير الأمواج، ولكن النوم كان يداعب جفنَيه فغفا إغفاءةً بسيطة، ثم نحَّى البطانية عنه خشية أن يستسلم إلى سُباتٍ عميق. وكان يخرج من بين الأحراش من آنٍ إلى آخر، فيتجوَّل تحت الأشجار الباسقة والنخيل العالية. وبينما هو كذلك، إذ سمع صوت قاربٍ يتحرَّك على صفحة الماء، فأرهَف سمعه وحدَّق ببصره وسط الظلام، بيد أنه لم يكن قارب زومبي؛ إذ سرعان ما ابتعَد الصوت متجهًا صوب وسط البحر.

وانتصَف الليل بعد انتظارٍ طويل، ثم مضى … وبعد فترة، فترةٍ طويلة، نظر مارك في ساعته فرآها تشير إلى الواحدة إلا خمسَ دقائق، فقال في نفسه: «قد حان الموعد الذي أوقِظ فيه نلسون.» وما كاد يُدير ظهره للبحر ويتجه نحو المعسكر حتى التقَطَت أذنه صوتًا

خافتًا في البحر، فوقف في مكانه ساكنًا لا يتحرَّك، يُنصِت بأذنَيه ويُحدِّق بعينَيه خلال ذلك الظلام الدامي، فأخذ الصوت يعلو ويقترب شيئًا فشيئًا. واستطاع بعد فترة أن يتبيَّن صوت ضرب المجاذيف للماء ... كان خافتًا أول الأمر، ثم أخذ يتضح قليلًا قليلًا. ثم تبيَّن له هيئة قارب يتحرَّك ببُطءٍ في البحر قادمًا نحوه.

وهمَس مارك، وهو يختبئ خلف الأحراج: «تُرى! هل هذا قارب زومبي؟»

مضت لحظاتٌ بطيئةٌ وئيدة، وكان الصوت خلالها يعلو رويدًا رويدًا، ويزيد القارب وضوحًا. وأخيرًا سَمِع صوت رُسُو الزورق على الشاطئ ... على بُعدٍ منه قريب، فجلس ساكنًا لا يتحرَّك.

ونزل من القارب شبَحان، وقال أحدهما: «هل نُنزِل الصناديق الآن؟»

لم يستطع مارك أن يسمع الرد، فتراجع إلى الخلف نحو الرمال، ثم سمع صوتًا يقول: «إذن فسننقل كل شيء إلى الكهف الليلة؟» فرَدَّ عليه صوتٌ آخر يقول: «نعم!»

استطاع مارك أن يرى شبحَين ينقلان بعض الصناديق من الزورق إلى البَر، وفجأة سمع صوتًا آخر آتيًا من جهة القرية خلفه ... كان شخصٌ ما مقبلًا صوب الزورق، وسيعبُر المكان الذي فيه مارك. وبعد فوات الأوان، أدرك الصبيُّ المسكين أنه لا بُد أن يأتي شخصٌ لملاقاة القارب.

فحاوَل أن يعود بسرعة إلى مكمنه وسط الشجيرات بعد أن تركه غافلًا، ولكن الرجل القادم من القرية كان يسير نحوه بسرعة. ولسوء حظ مارك داس على غصنٍ جاف من فَرْط عجلته وارتباكه، فانكسَر تحت قدمه مُحدثًا صوتًا عاليًا.

فقال صوت: «مَن هناك؟» ثم شَق دُجى الليل ضوءٌ قوي بهَر عينَي مارك؛ لأنه سُلِّط على وجهه مباشرة.

وثَب مارك بسرعة، وبدأ يعدو، ولكنه لم يبتَعِد خطوتَين أو ثلاثًا حتى قبضَت عليه يدان قويتان وجذبتاه، فاستدار ليُواجِه آسره، فإذا برجلٍ يُسلِّط ضوء مصباحٍ كهربي على وجهه تمامًا.

فصرَخ مارك، يقول: «اتركني! دعني! ما لك بي؟!» وصوَّب لكمةً قوية وركلةً بساقه إلى الرجل، فندَّت عنه صرخةٌ قوية، فضاعف مارك جهده وضرب ثانية، فانطفأ النور فجأة، ثم ركل مرةً أخرى، فسمع تأوُّهاتٍ أخرى. وبينما هو يُحاوِل تخليص نفسه، أصابَتْه ضربةٌ قوية في بطنه فجأة، فسقَط جاثيًا على ركبتَيه. وسمع صوتًا يقول: «اضرِبه بقوة.» فأحَسَّ بضربةٍ قوية تهوي على أم رأسه، فأطلَق صرخة، وسقَط مغشيًّا عليه فوق الرمال.

برك فوق مارك ثلاثة أشخاص، أحدهم بدين. وسُلِّط ضوءٌ قوي على وجهه، وسمع شخصًا يقول: «إنه ليس سوى غلامٍ حدث! غير أنه ليس لدينا وقتٌ كافٍ. سنأخذه معنا إلى الكهف. قيِّداه بالحبال.»

ما أسرعَ ما أحضَر الرجلان الحبال، وشدَّا وثاق مارك، وحمَلاه عَبْر القرية، ووضَعاه في مؤخر سيارة كانت مُخبَّأة عند جانب الطريق! وبسرعةٍ أحضَرا الصناديق ووضعاها في السيارة أيضًا، ثم رَكِب الرجال الثلاثة، فانطلقَت بهم السيارة، وقد أخذوا مارك أسيرًا.

نلسون يُهرَع لنجدة مارك

لم يعلم المهرِّبون أن هناك شاهدًا آخر.

فقد صحا نلسون من نومه قُبيل الواحدة بعد منتصف الليل، وتسلَّل خارجًا من المعسكر ليحلَّ محلَّ مارك في المراقبة عند الشاطئ. ولَّما اقترب من مكان مارك رآه يُناضِل للإفلات من القبضة الحديدية التي أمسكَت به، ففكَّر بادئ ذي بدء في أن يذهب لمساعدته، ولكنه أدرك أنه من العبَث أن يشتبك في عراكٍ مع ثلاثةٍ من الرجال الأشداء الأقوياء؛ لذلك بقي ساكنًا بين الشجيرات حتى رآهم يحملون مارك والصناديق إلى السيارة. ورأى السيارة وتفحَّصَها، فإذا هي بعينها التي أشار إليها مارك عند ملعب كرة القدم. إنها سيارة زومبي!

ما كادت السيارة تتحرك حتى هُرع نلسون يعدُو بأسرعِ ما في وُسْعه إلى المعسكر، وأيقظ محمدًا بسرعة، قائلًا: «أي محمد! أي محمد! استيقِظ بسرعة! إن مارك في خطرٍ بالغ! أيقِظ بقية الفرقة!»

استيقظ محمد من نومه مذعورًا، وانطلق خارجًا من خيمته ليلتقي بنلسون يستفسر منه عن الخطب، ولكن هذا لم ينتظِرْه، بل أسرع ليُوقِظ الأستاذ جون.

كان الأستاذ جون نائمًا وحده في خيمةٍ صغيرة، وعندما صاح نلسون يناديه، هَبَّ من نَومه وأطَلَّ برأسه من بين ثنياتِ فتحة الخيمة، ليرى من الذي أيقظه.

فبادره نلسون بقوله: «قبَض المهرِّبون على مارك، يا أستاذي! وضرَبوه وحمَلوه معهم في سيارة، وأخشى أن يكونوا قتلوه.»

فصاح الأستاذ جون في دهشة: «مهرِّبون؟ ماذا تعني بهذا، يا نلسون؟»

أخبره نلسون في إيجازٍ بموضوع الكهف، وزومبي وقاربه وسيارته، وما رآه مارك، ثم قال: «لقد أحضَروا بعض الصناديق، هذه الليلة، وكان مارك على الشاطئ يراقب القارب، فقبَضوا عليه، وسيأخذونه إلى الكهف. لقد سمعتُهم يقولون هذا.»

وقف الأستاذ جون حائرًا مبهوتًا، وأخيرًا شرع يفكِّر في سرعة، وقال لنلسون: «اذهب وأيقِظ السائق ليُعِد السيارة في الحال، ثم أيقِظ عليًّا، ودَعْه يوقظ اثنَي عشر غلامًا أقوياء. سأكون مستعدًّا بعد لحظة.»

صدَع نلسون بالأمر، بينما ارتدى الأستاذ جون ملابسه. وما هي إلا لحظاتٌ حتى كان المعسكر كله كخلية نحل، فجرى الأولاد نصف عرايا، هنا وهناك، وأضيئَت المصابيح في كل ناحية، وكثُر اللغط، فلمَّا عرفوا أن عليًّا يريد اثنَي عشر صبيًّا من الأقوياء لنجدة مارك، تطوَّع الجميع للذهاب معه، ثم ظهَر الأستاذ جون وسط الضجيج يحمل قذَّافته، وقال: «اسمع، يا علي. إنني ذاهبٌ إلى المدينة لإبلاغ الشرطة؛ فهذه مهمتُهم. لو كان ما قاله نلسون عن المهرِّبين حقيقة يجب أن يأتي الشرطة ويتولَّوا الأمر. سأعود سريعًا. أما أنت، فابقَ هنا لتتولى رئاسة الكشَّافة، وعند عودتي سأصحَبُك أنت والاثنَي عشر غلامًا، ونذهب جميعًا إلى الكهف لإنقاذ مارك.»

رَكِب الأستاذ جون سيارة المدرسة، وصَحِب معه نلسون، قائلًا: «تعالَ معي، يا نلسون! إنك شاهد عِيان، وتستطيع إخبار الشرطة بما رأيتَ. أسرِع بنا، يا سائق!»

ما كاد نلسون يركب السيارة حتى انطلقَت في طريقها إلى المدينة. وكانت على بُعد ثمانية أميال. وبينما كانت السيارة تنهَب الأرض نهبًا، جال بفكر نلسون أنه لم يَسبِق للسيارة أن جرت بهذه السرعة منذ اليوم الذي سرقَها فيه السائق القديم بمساعدته. وكان بمؤخر السيارة متعلقًا بأحد جوانبها ليتحاشى أن يُقذَف منها وهي تقفز في الطريق الوَعْر. وكانت المناظر على جانبَي الطريق تمُر كأشباحٍ سوداءَ وسط الظلام. وكاد نلسون يختنق من سُحُب الغُبار التي أثارَتْها العجلتان الخلفيَّتان.

سرعانَ ما وصلَت السيارة إلى المدينة، وأخذَت تسير في شوارعها المظلمة حتى وقفَت أمام مركز الشرطة، فنَزل منها الأستاذ جون في سرعة البَرق، ودخل مقَر الشرطة قفزًا، وهو يقول: «أريد مقابلة الضابط في الحال. إن الأمر خطيرٌ يتطلَّب السرعة البالغة.»

فقال الجندي: «سمعًا وطاعة، يا سيدي! سأذهَب وأوقِظُه في الحال.» ثم انصرف لتوِّه ... وخُيِّل إلى الأستاذ جون أن الوقت يمُر بطيئًا متثاقلًا.

مرَّت لحظاتٌ ولحظات، وكان الأستاذ جون يَذْرع أرض الحجرة جيئةً وذهابًا قلقًا. ثم أشعَل لِفافة تبغ، ولكنه سرعانَ ما طوَّح بها من النافذة.

وأخيرًا سمع وَقْع أقدام تُسرِع الخطى. وعاد الجندي ومعه رجلٌ بملابس النوم، يقول: «ها أنا ذا، يا سيدي! أنا نائب مفتِّش الشرطة المكلَّف بالنوبة ليلًا. ماذا تريد؟»

بدأ الأستاذ جون يشرح الموقف، والرجل يقترب منه ليسمع ما يقوله، ثم قاطَعَه بقوله: «ما هذا؟ إنك الأستاذ جون ... ألا تذكُرني، سيدي؟ إني محمود أحمد، أحد تلاميذك السابقين.»

فقال الأستاذ جون: «آه، لقد تذكَّرتُك تمامًا. إن الحظ يخدمنا بوجودك. لقد تأكَّدتُ الآن أنك ستُساعِدنا بكل ما في وُسْعك. لدينا بعضُ المهرِّبين ينبغي القبض عليهم، وتلميذٌ في خطر نريد إنقاذه من براثن أولئك المجرمين.»

بعد أن سمع الضابط موجَز القصة، أرسل جنديًّا ليجمع بعض رجال الشرطة، ثم قال: «اذهب، وأحضِر غلمانك في الحال، يا أستاذ جون. سأتبعُك في الحال. سنلتقي في الطريق إلى الكهف.»

قال: «حسن، وداعًا الآن!» ثم التفَت إلى نلسون وقال له: «فلنَعُد إلى المُعسكَر ثانية، يا نلسون.»

ما هي إلا ثوانٍ حتى كانت سيَّارة المدرسة تُسرِع إلى المعسكر. وفي أثناء الطريق، كان نلسون مشتَّت الفكر قلقًا على صديقه، يخشى أن يكون المهرِّبون قد أصابوه بسوء، وجال بفكره أنه كان يجب عليه أن يتدخَّل في العِراك ليُخلِّصه ساعة القبض عليه.

لم يستغرق الأستاذ جون ونلسون أكثر من نصف ساعة منذ أن غادرا المعسكر حتى رجعا إليه، فوجدا عليًّا ينتظرهما مع اثنَي عشر من الغلمان الأشدَّاء، بينما كان جميع أفراد الكشَّافة ينظرون إليهم وكلهم يودُّ لو تُتاح له فرصة الذهاب معهم.

فقال الأستاذ جون: «هل أحضَرتَ عِصيًّا لتُقاتلوا بها، يا علي؟»

قال: «نعم، يا سيدي! إننا على أتم استعدادٍ لمقاتلة جيشٍ بأكمله.»

قال: «حسن! هيا، اركبوا، أخشى ألا تتسع السيارة لنا جميعًا.»

ما إن رَكِب الأولاد في الجزء الخلفي من السيارة حتى انطلقَت بهم في الطريق المؤدِّي إلى الكهف. أما نلسون والأستاذ جون فرَكِبا بجانب السائق. وفي وسط الطريق، صاح نلسون في أذن الأستاذ جون، حتى يطغى صوتُه على صوت السيارة، قائلًا: «ألا تعتقد، يا سيدي. أنه خيرٌ لنا أن نسير بغير أضواء حتى لا يُبصِرَنا المهرِّبون فيُفلِتوا منا؟»

قال: «هذه فكرةٌ طيبة، يا نلسون! لم تخطر ببالي من قبلُ ... أطفِئ الأنوار، يا سائق.»

كان عليهم، إذن، أن يسيروا في بطءٍ بغير ضوء، وإلا سقطَت السيارة في حفرة، فالرؤية متعذِّرة وسط هذا الظلام. وكان هذا أكثر راحةً لهم.

وصل الجمع أخيرًا إلى المكان الذي تَركَت فيه سيارة المهرِّبين الطريق العام متجهةً نحو الكهف، فأمر الأستاذ جون السائق بالوقوف، ثم سأل عليًّا بقوله: «ألا ترى ما يدُل على قدوم الشرطة، يا علي؟»

قال: «كلا، يا سيدي! لا أسمع ولا أرى شيئًا.»

فقال الأستاذ جون: «إذن فلنستَمر في خطَّتنا بدونهم؛ لأننا لا نريد أن يغادر المهرِّبون الكهف قبل وصولنا إليه.»

أمَر الأستاذ جون فرقتَه بالنزول من السيارة، ثم قال لهم: «يجب أن نذهب إلى الكهف سيرًا على الأقدام لئلا يسمَع المهرِّبون صوت السيارة.» ثم التفَت إلى علي، وقال له: «يجب أن يبقى هنا غلامٌ ليُخبِر الشرطة بما فعلناه ... خذ نصف الأولاد، وأنا آخذ النصف الآخر.»

فقال علي: «كما تريد، يا سيدي!»

قال: «سأتقدَّم مع فرقتي، وعندما نقترب من الكهف، سأدور إلى يمينه، بينما تدور أنت إلى يساره، حتى تُحيط بالكهف من كل جانب.»

قال: «سمعًا وطاعة، يا سيدي! قد فهمتُ كل ما تقصِد. أيَّ الأولاد ستأخذ معك؟»

قال: «سآخذ نلسون ومحمدًا وأربعةً آخرين.»

انقسم الأولاد فرقتَين، وساروا في هدوء في الطريق الوَعْر المؤدِّي إلى الكهف.

مارك سجين الكهف

عندما بلغَت سيارة زومبي الكهف، كان مارك لا يزال فاقد الوعي، فحمَله الرجلان من السيارة ودخلا به الكهف، وألقَياه في القاع على الأرض؛ حيث تركاه فترةً من الوقت، وأخذا يتحدَّثان في همس، ثم جاء الرجل البدين (زومبي)، فرَشَّ قليلًا من الماء على وجه مارك، وركلَه في جنبه بحذائه الضخم.

ففتَح مارك عينَيه ببطء وهو يئن في ضعفٍ من شدة الألم. ولم يعرف أول الأمر أين هو. كان يظُن أنه نائم في المدرسة، ولكن رأسه كان يؤلمه ألَمًا مُبرِّحًا، وأحَسَّ بأنه مريضٌ حتمًا، فغَمضَ عينَيه ثانية. بيد أن صوتًا خشنًا رَنَّ في أذنَيه، يقول: «استيقِظ، أيها اللعين!»

ففتَح عينَيه ثانية، فرأى رجلًا بدينًا قبَّح الله خلقتَه، يقف أمامه مقطب الجبين، يكاد الشرر يتطاير من عينَيه، فخُيل إليه أنه يرى أحدَ زبانية جهنَّم، ثم ما لبِث أن تبيَّنه تمامًا، فإذا هو زومبي بفظاظته ودمامته ... وعندئذٍ تذكَّر كل ما حدث. حاوَل أن يجلس، ولكنه كان موثقًا بالحبال. وقد أمكَنَه أن يرى الكثير مما حوله، فأدرك أنه في الكهف.

وسأله زومبي بخشونة: «لماذا كنتَ تُراقبنا عند شاطئ البحر؟»

أغمَض مارك عينَيه ليفكِّر في عُذرٍ يُجيب به، ولكن رأسه كاد أن ينشَق من شدة الألم، وكان مثقلًا جدًّا كما لو كان محشوًّا بالرصاص.

فأعاد زومبي سؤاله من جديد، ولكن بصوتٍ يتجلى فيه التهديد والصرامة: «أخبرني، لماذا كنتَ هناك؟ هل كان معك أحد؟» وركلَه بقدمه ركلةً قوية زادت من آلامه.

فأجاب في ضعف: «كلَّا! لم يكن معي أي فرد ... كنتُ وحدي!» وفجأةً طرأَت على خاطره فكرةٌ يعتذر بها عن وجوده عند الشاطئ، فقال: «كنتُ وحدي ... ذهبتُ إلى هناك

لأنني كنتُ متوعِّك المزاج، فأردتُ أن أتجوَّل قليلًا تحت الأشجار وعلى شاطئ البحر. إنني أعيش مع عمي في المدينة.»

ضحك زومبي ملء شدقَيه، وقال: «هل هذا كل ما هناك؟ حسَن، ستتعلم من هذا ألا تخرج ليلًا ... ولكن يجب أن تبقَى معنا الآن هنا، حتى ننظُرَ في أمرك.»

ألقى زومبي نظرة ازدراءٍ إلى مارك، وركلَه، ثم تركَه وانصرَف إلى زميلَيه، وقال لهما: «لا خطر علينا من هذا الغلام. لم يكن له شركاء. إنه مجرد لهو الصبيان. هيا بنا نتناول شيئًا من الطعام قبل أن ننقل الصناديق؛ فإن الجوع يقضِم أحشائي.»

رفع مارك رأسه، فرأى الرجال يجلسون ليُصيبوا كفايتهم من الطعام، وكان زومبي يأكل بنهم كأنما يأكل آخر زاده، ويُقهقِه بين الآونة والأخرى وهم يتبادلون النكات، فبقي مارك ساكنًا لا يتحرَّك، وأخذ يفكِّر في وسيلةٍ للهرب. غير أن الحبال كانت مشدودةً بقوة حول يدَيه ورجلَيه، فبدا له أنْ لا أمل في خلاصه، فترك أمره إلى الله يتولاه برحمته.

وحرَّك رأسه وهو مُلقًى على الأرض ليُخفِّف من حدة الألم، فإذا به يُحِس شيئًا في جدار الكهف يخدش خدَّه، فتحرَّك قليلًا حتى أمكَنه أن يلمسَه بلسانه؛ كان قطعةَ صخرٍ ناتئةً حادَّة في الحائط. فعاوَدَه الشعور بالأمل، وقال لنفسه: «إذا كان الصخر حادًّا حتى إنه كاد يجرح خدِّي، فهو صالح لقطع الحبل.»

أخذ يتحرَّك بحذَر حتى لا يسمَعَه الرجال، إلى أن صارت ذراعاه أمام حافة الصخر الحادَّة، ثم طَفِق يحرِّك ذراعَيه إلى الأمام وإلى الخلف، والصخر يحزُّ في الحبل. كان ذلك عملًا بطيئًا جعل ذراعَيه تؤلِمَانه أيما إيلام. ولكنه كان يُحِس بأن الحبل ينقطع. وبعد جهدٍ جهيد فُكَّت ذراعاه من اليدَين إلى المِرفقَين.

ثم بدأ الصبي يحلُّ الحبلَ الملتفَّ حول الجزء العلوي من ذراعَيه. وقد ركَّز عينَيه طول الوقت على الرجال ليرى ما إذا كانوا قد تنبَّهوا إلى محاولته. وسرعان ما خلَّص ذراعَيه تمامًا، فلم يَبقَ إلا أن يفك قيود رجلَيه بعد ذلك ... وأخيرًا تخلَّص تمامًا من وثاقه؛ فكل ما يجب عليه فعلُه لينجو هو أن يخرُج من الكهف دون أن يفطن إليه الرجال. بيد أنهم كانوا جالسين عند مدخل الكهف، ويتعذَّر الخروج أمامهم.

فبقي راقدًا على الأرض يراقب المهرِّبين عسى أن تسنح فرصةٌ لنجاته. كان يراهم كأشباحٍ عند المدخل في الضوء الخافت المنبعث من لفائف التبغ التي كانوا يدخِّنونها. وبعد فترةٍ وجيزة نهَضوا من أماكنهم، فتنَفَّس الصُّعَداء، ولكنه سمع ما جعل الدم يتجمَّد في عروقه. سمع صوت زومبي يقول لمساعديه: «يجب أن نبدأ بنقل الصناديق من السيارة إلى

الكهف، ثم نتخلص من هذا الصبي. لا يمكن أن نتركه ينصرفُ من هنا فيُذيع بين الملأ ما رآه، ويُخبر كل فرد بأمر الكهف.»

فأيقن مارك أن زومبي يُزمِع قتلَه حتى لا يعرفَ الناسُ عنه شيئًا. يجب أن يهرُب في الحال. إنها مسألة حياة أو موت!

إغارة الكشَّافة

مَدَّ نلسون يدَه في الظلام فأمسَكَ بشيءٍ طري، فهمَس قائلًا: «أهذا أنت يا أستاذ جون؟»

فأجاب: «نعم، أو على الأصح سراويلي! هل بقية الفريق معك؟»

– «نعم، يا سيدي، هذا جمعة خلفي يُمسِك بقميصي، ووراءه محمد ... كلنا هنا.»

كان تسلُّق التل الوَعْر المسالك في الظلمة الحالكة أمرًا شاقًّا. وكثيرًا ما كان الأولاد يتعثَّرون في الأحجار، ويقَعون في الحُفَر، ويسقُطون على الصخور. كما كان عليهم أن يتوقَّفوا بين الحين والحين حتى يلحَق بهم مَن خَلفَهم لئلا يَضِلوا الطريق.

وبعد فترة من الزحف الشاق، قال الأستاذ جون: «أظنُّنا قد اقتربنا من الكهف. هلُم إليَّ، يا محمد؛ فأنت تعرف المكان تمامًا، وقد رأيتَ الكهفَ من قبلُ.»

ذهب محمد إلى أستاذه، وأخذ يحدِّق النظر فيما حوله خلال الظلام الكثيف، ثم قال: «نعم، لقد اقتربنا جدًّا، يا سيدي!»

فقال الأستاذ: «إذن تقدَّم أمامي، وأرشِدْنا إلى الطريق!»

شرع طابور الأولاد يزحف في بطء وهدوء أكثر من ذي قبل، وسط الليل البهيم، كأنه أفعى بالغة الطول. وكانت ضرباتُ قلب كل فردٍ منهم تزداد شدة وهم يفكِّرون في الموقف الذي سيواجهُهم بعد لحظاتٍ عند الكهف ... وتحسَّس نلسون عصاه، وأمسكها من طرَفها استعدادًا للعمل؛ إذ كان ينوي أن يكون أول من يهجُم على الرجال الذين ضرَبوا صديقه مارك أمام سمعه وبصره. وخشي الأستاذ جون أن يكون عليٌّ وفرقتُه قد ضلوا الطريق، كما خشي ألا يحضُر رجال الشرطة في الوقت المناسب، فقرَّر ألا ينتظرهم، بل يهجُم ويقبِض على المهرِّبين في أثناء قيامهم بعملهم. وفضلًا عن هذا، فإن أشدَّ ما كان يُقلِق باله خوفُه من أن يصيبوا مارك بسوء.

وبينما كان أحد الغلمان يتحسَّس طريقه وسط الظلام الدامس، داس قطعةً من حجر كانت تسند أخرى، فتدَحرجَت هذه، وسقطَت محدثةً دويًّا في سكون الليل المُطبِق، فتوقَّفَت الفرقة كلها لترى وَقْع ذلك الصوت على المهرِّبين، ولكن لم يبدُ ما يُنذِر بالخطر من أعلى، فاستأنفوا المسير.

وأخيرًا وقف محمد خلف صخرةٍ كبيرة، وجذب الأستاذ جون من مِدرَعته (جاكتته) ليأتي إلى جانبه، ثم همَس في أذنه قائلًا: «لقد وصلنا. انظر إلى قمة هذه الصخرة تُبصِر الكهف فوقنا مباشرة.»

رفع الأستاذ جون رأسه بحذَر، ونظر أعلى الصخرة، وأخذ يُمعِن النظر حتى استطاع أن يرى حدود الكهف رغم الظلام الرهيب، وعلى مسافةٍ قريبة منه كانت تقف سيارةٌ لم يتبيَّنها تمامًا. وبينما هو ينظر إلى الكهف رأى أشباحًا سوداء تتحرَّك جيئةً وذهابًا بين السيارة والكهف. وسمع صوت شيءٍ ثقيل يُجر فوق الأرض، فخفَض رأسه، واستَتَر خلف الصخرة ثانية، وهمس في أذن نلسون يقول له: «أريد منك أن تَصْحب معك غلامَين وتذهبوا إلى يمين الكهف. وسأنتظر أنا مع ثلاثة أولاد هنا. أفهمتَ ما أقصد؟»

فردَّ هامسًا: «نعم، يا سيدي! وماذا نفعل عندما نصل إلى هناك؟»

قال: «عندما تصلون. انفُخ في صَفَّارتك عاليًا، فننقَض جميعًا، فريقك وفريقي، ونهجُم على المهرِّبين في وقتٍ واحد.»

– «حسَن! يا سيدي.» ثم اختار غلامَين، وساروا في الظلام صوب الكهف.

أخذ الأولاد يزحفون في هدوء وحذَر، حتى بلغوا الكهف، فوقفوا عن يمينه. بينما كان الأستاذ جون وفريقه ينتظرون خلف الصخرة ... فمرَّت لحظاتٌ طِوال ولم تنطلق صَفَّارة نلسون ...!

وهمَس الأستاذ جون يخاطب من معه من الغلمان: «أأنتم على استعداد؟ ستنطلق صَفَّارة نلسون بين آونة وأخرى.» ... فأمسك الأولاد بهِراواتهم، وانتظروا سماع الصفَّارة لينقَضُّوا على المجرمين.

مارك يحاول الهرب

أما مارك فأخذ يزحف ببطء داخل الكيف متجهًا ناحية الباب. وفي كل مرة يدخل الرجال بصندوق يتوقف عن الزحف، ويبقى ساكنًا في مكانه لا يتحرك، داعيًا الله ألا يلحظ الرجال تحرُّكَه من موضعه. وأخيرًا صار بجانب المدخل، وبقي هناك ينتظر فرصته ليتسلل خارجًا، ويهرُب تحت جنح الظلام.

ثم جاء زومبي مع أحد الرجال يحملان صندوقًا. وبعد أن وضَعاه على الأرض، خرج الرجل وبقي زومبي في الكهف يدفع الصندوق إلى أحد الأركان، وسمع مارك وقع أقدامه — تتجه نحو المكان الذي كان هو مُلقًى فيه من قبلُ.

فقد كان يريد أن يدفع بالصندوق نحو مارك، ويضغطه بين الصندوق وجدار الكهف بقوة فيقتُله، ولكنه لم يجده، فصاح بغضب يقول: «أين ذلك الولد الشرِّير، لقد أخطأنا في المجيء به هنا، كان علينا أن نتخلص منه عند الشاطئ.»

ورأى مارك أنه إن لم يهرُب في هذه اللحظة فلن يخرُج من الكهف حيًّا ... فنهض على قدمَيه، واندفع نحو مدخل الكهف. بيد أن زومبي أبصر شبَحَه أمام الباب، فجرى نحوه كالفيل الهائج، ثم انقَضَّ عليه وهو يصيح صيحةً مدوِّية، فأخذ مارك يدافع عن نفسه ليُفلِت منه، ولكن محاولته ذهبَت أدراج الرياح، فسقط على الأرض، وسقط فوقه جسم زومبي الضخم. وأحَسَّ بيدَي زومبي الخشنتَين تُطبِقان على رقبته، فأخذ الولد المسكين يُناضِل ويرفُس برجلَيه ليُخلِّص نفسه من قبضة ذلك الوحش الآدمي، ولكنه لم يُفلِح؛ إذ كانت يدا زومبي تقبضان على عنقه قبضةً حديدية. وشعَر مارك بعجزه عن التنفُّس، وسرعان ما أحَسَّ بقواه تخور.

وفي نفس اللحظة، دوَّى صوت صَفَّارة دويًّا اهتَزَّ له المكان كله.

القبض على المهرِّبين

دوَّت الصَّفَّارة في وقتها المناسب تمامًا؛ فعندما سمع الرجلان الآخران صياح زومبي هُرِعا إلى الكهف فوجداه يناضل مارك. وعندما انطلقَت الصفَّارة، صاح الأولاد وهم ينقَضُّون على المهرِّبين، فخُيِّل إلى المجرمين أن زبانية الجحيم قد انطلقَت من عِقالها، فأرخى زومبي من قبضته، ووثَب واقفًا على قدمَيه ليواجه الخطر الجديد.

ما هي إلا لحظة حتى كان الأستاذ جون وتلاميذُه يُحيطون بالرجال الثلاثة إحاطة السوار بالمعصم، وبدأ نضالٌ مرير داخل الكهف.

وشرع الأولاد يُثخِنون الرجال ضربًا بعِصِيِّهم، ثم رأَوْا أن عِصِيَّهم لن تُجديَهم نفعًا في هذه المعركة، فألقوا بها جانبًا، وانقَضُّوا على المهرِّبين انقضاض الضباع الجائعة على الثيران، فأخذ ثلاثةٌ منهم يقاتلون زومبي البدين القوي العملاق، بينما انبرى الأستاذ جون وتلاميذُه الثلاثة الآخرون إلى الرجلَين الآخرَين، وطَفِقوا يتدحرجون فوق الأرض، فامتلأ الجو بالصُّراخ، ودوَّى المكان بالصِّياح، وردَّد الهواء صوت الضربات واللكمات والركلات.

في وسط ذلك المعمعان، صاح الأستاذ جون يقول: «مارك ... أين أنتَ يا مارك؟»

كان مارك لا يزال طريحًا على الأرض خائر القوى ... فلمَّا سمع اسمه نهض واقفًا. وفي هذه اللحظة أبصر شيئًا يلمع في يد زومبي قد انتزعه من منطقة في وسطه ... لقد استَلَّ زومبي سكينًا من حزامه ليطعَن بها مهاجميه؛ فما إن رأى يدَه تهوي نحو رقبة نلسون حتى هجَم عليه مارك في سرعةٍ خاطفة، فقبض على ذراعه القوية ولواها في عنف وأخذ منها السكين ... وعندما رأى الأستاذ جون السكين تلمع، رفع مؤخر بندقيته، وهوى به على رأس زومبي.

فترنَّح جسم زومبي كما تترنَّح دوحةٌ ضخمة اقتلعَتها عاصفةٌ هوجاء. وقد انبعثَت من فمه أنَّة ألَم، وارتمَى على الأرض لا يتحرك.

اشتبك جمعة ومحمد مع أحد رجال زومبي، وكان لا يقل عنه قوة، فألقَياه على ظهره، ولكنه قاتَل كالكلب الهائج، يعَضُّ ويرفس ويخدِش وجهَيهما بأظافره الطويلة الحادَّة القذرة. وأخيرًا أمسك بذراعَيهما وجذبهما بقوة نحوه على الأرض، وانقلب يبرك فوقهما يبغي الفتك بهما، وكاد يتغلب عليهما لولا أن هبَّ لنجدتهما زملاؤهم الذين كانوا يقاتلون زومبي، فانقَضُّوا على ذلك الرجل وأوسعوه ضربًا بعِصِيِّهم وركلًا بأحذيتهم، حتى اضطُر إلى ترك جمعة ومحمد، وانبرى إلى هؤلاء الثلاثة، فإذا بجمعة بجذبه من قفاه فيُوقِعه على الصخر، ويبرك فوق صدره ورأسه بينما الهِراوات تنهال كالمطر على جسمه وفخذَيه من كل جانب.

أما الرجل الثالث فقد أراد الهروب، لولا أن غلامًا واحدًا تشبَّث بحزامه رغم اللكمات التي كان يَكيلُها له الرجل، فاستجمع الصبي كل قواه وسدَّد ضربةً شديدة بطَرَف حذائه إلى قصبة ساق الرجل، فخَرَّ جاثيًا على إحدى ركبتَيه، وعندئذٍ أسرع الغلام بلكمةٍ إلى أنفه جعلَت الدم ينبثق منه، وبركلةٍ في بطنه. غير أن عنف الضربة جعلَ الرجل يثور ويهُب واقفًا ليُعاود نضال الصبي من جديد. كل هذا والباقون مشغولون عنهما، لا يَدْرون بما يجري بينهما. وأخيرًا صوَّب الرجل لكمةً إلى صدر الولد فأبعَده عنه، واندفع يعدُو خارج الكهف صوب الطريق إلى أسفل التل.

في تلك اللحظة فزع كل فرد من صوت سيارةٍ مندفعة من الطريق نحو الكهف. وكان ضوء مصباحيَها القوي ينفُذ خلال الشجيرات فيُعمي الأبصار، ثم وقفَت أمام مدخل الكهف.

وما كادت السيارة تقف حتى قفَز منها الضابط ومعه أربعةٌ من رجاله، وصاح قائلًا: «أأنت هنا، يا أستاذ جون؟ هل قبضتَ على المهرِّبين؟»

خرج الأستاذ جون إلى الضابط عندما سمع صوته، وقال: «نعم، قبضنا على اثنَين منهم. غير أنهم كانوا ثلاثة، واستطاع الثالث أن يهرُب في أثناء القتال. وعلى أية حال، فقد وجدنا مارك بخير. وهذا ما كان يُقلِق بالي ويُبلبِل خاطري.»

فقال الضابط: «معذرةً لتأخُّرنا؛ فقد انفجَرَت إحدى عَجلات سيارتنا، فاستغرَق إبدالها بعض الوقت. وعندما وصلنا إلى سفح التل، أخبرنا أحد غلمانك بأنك صَعِدتَ إلى

الكهف، ثم سمعتُ صياحًا وضجيجًا فأسرعتُ نحو مصدرهما. أين المهرِّبان اللذان قبضتَ عليهما؟»

أمر الضابط رجاله بوضع الأصفاد في أيدي زومبي وزميله. وكان زومبي لايزال فاقدًا وعيه. وقد عَرفَه الضابط لأول وهلة، وقال: «كنا نشك منذ زمنٍ بعيد في مسلك زومبي، ولكننا لم نستطع إثبات شيء ضده؛ إذ كان يتصرَّف بحذَرٍ بالغ. وإن مأمور القسم سيقدِّم لك عظيم الشكر عندما يعلم بالقبض عليه متلبسًا بالتهريب، يا أستاذ جون! والآن، أين مارك؟!»

تقدَّم مارك من الضابط، وقال: «ها أنا ذا، يا سيدي!»

فقال الضابط: «أين الصناديق التي يقول الأستاذ جون إنهم نقلوها من القارب إلى السيارة؟»

كان الألم ما فتئ يُبرِّح برأس مارك، فأخذ يستجمع ذاكرته، ثم أشار إلى داخل الكهف وإلى السيارة الواقفة على مسافةٍ قريبة خلف الأحراج، وقال: «بعضها في الكهف، والباقي لايزال في تلك السيارة العتيقة، يا سيدي!»

دخل الضابط مع مارك الكهف ومن خلفهما بقية التلاميذ، فأضاء مصباحه الكهربي، وتجمَّع حولهما بقية الغلمان، فرأى الضابط صندوقَين في الركن الأيمن البعيد، فأخذ يقرأ ما عليهما على ضوء مصباحه، ثم قال: «نعم، إنهما كانا فعلًا في إحدى البواخر قريبًا؛ فهذا تاريخ تصديرهما من إنجلترا مكتوب عليهما، مما لا يدع مجالًا للشك في تهريبهما.» ... ثم أمر أحد رجاله بفتح الصندوقَين، ففتحَهما بفأسٍ كانت معه، وأخرج محتوياتهما، فقال الضابط: «إنها كما تكَهَّنتَ يا مارك ... لفائف تبغ، وبانجو وأشياءُ أخرى ممنوعة. وما من ريبٍ في أن ضريبة الجمارك لم تُدفَع عن كل هذه الأشياء. وعلى أية حال، فالبانجو ممنوعٌ من دخول البلاد. وهذا وحدَه عملٌ يُعاقِب عليه القانون أشد العقاب.»

أطل الأولاد برءوسهم لَيَرَوا ما تحويه الصناديق، فقال جمعة يتندَّر: «ربَّاه! إن ما بالصندوقَين من تبغٍ لَيَكفي الأستاذ جون طَوالَ حياته، أو لعشر سنواتٍ على الأقل!»

فقَهقَه الأستاذ جون ضاحكًا عندما سمع اسمه مقترنًا بالفكاهات! وقال: «لا فائدة من النظر إلى لفائف التبغ، يا جمعة. إن الضابط سيأخذها جميعًا ويُرسِلها إلى مفتِّش الجمارك ليُصادرها!»

فقال الضابط: «سأترك أحد رجالي يحرُسُها حتى نُرسِل في إحضارها.»

خرج الأولاد من الكهف، وأخذوا ينظرون إلى الأفق وقد بان البحر من بعيدٍ يلمع في ضوء الفجر الوردي الأنامل، فقال الأستاذ جون: «قد حان موعد رجوعنا إلى المعسكر؛ فالجميع هناك ينتظروننا على أحَرَّ من الجمر!»

فسأل نلسون فجأة: «أين عليٌّ وفرقتُه، يا سيدي؟»

قال: «رحماك، يا إلهي! لقد نسيتُهم تمامًا. ربما يكونون قد ضلوا الطريق. يجب أن نبحث عنهم ونحن عائدون.»

اصطَفَّ الأولاد في طابورٍ واحد، وأخذوا يَهبِطون التل، يتقدَّمهم الأستاذ جون، وبينما هم سائرون، مرَّت بهم سيارة الشرطة تحمل زومبي ورفيقَه أسيرَين في حراسة رجال الشرطة بالجزء الخلفي من السيارة، وقد أمسكوا بالمسدسات في أيديهم خشية أن يُحاوِلا القفز من السيارة.

لم يتقدم الأولاد في سيرهم طويلًا حتى سمعوا صوتًا آتيًا من الأحراج على يمين الطريق، فوقفوا لَيَرَوا ماذا هناك، فإذا بعليٍّ يخرج ويُحيِّي الأستاذ جون، قائلًا: «عِم صباحًا، يا سيدي! ماذا حدث لكم مع المهرِّبين؟ لقد ضلَلتُ الطريق مع فرقتي.»

فقال الأستاذ جون: «انتهى كل شيء على ما يُرام، يا علي. أنقذنا مارك، وقبضنا على اثنَين من المهربين، أما ثالثهم فقد استطاع أن يُفلِت منا.»

فقال علي: «كلا، يا سيدي! لم يُفلِت. لقد قبضنا عليه؛ فبينما نحن واقفون في جنح الظلام، إذا بشخصٍ يجري وسطنا مباشرة، فخطر ببالي أنه ربما يكون واحدًا من المهرِّبين، فاحتفظنا به حتى نتحرَّى أمره.»

قال: «هذا رائع منك، يا علي! والآن يُمكِننا أن نعود إلى المعسكر مرتاحي البال.»

وما هي إلا لحظات حتى خرجَت فرقة عليٍّ من بين الأحراج، وبينهم المهرِّب الهارب، يُجلِّل رأسه الخزي والخجل، فسار الجمع كله أسفل التل حتى بلغوا سيارة المدرسة؛ حيث كانت تنتظرهم، فركبوها، واحتفظوا بأسيرهم بينهم مقيَّد اليدَين. وسرعان ما وصلَت بهم إلى المعسكر، وقد أخذ التعب منهم كل مأخذ، ونال منهم الجوع، ولكنهم كانوا مغتبطين لنجاحهم في عملهم البطولي. وبعد أن استراحوا ونالوا شيئًا من الطعام، قاد عليٌّ والأستاذ جون أسيرَهم إلى المدينة، وسلَّموه إلى الشرطة.

كن مستعدًّا

بعد أن تناوَل الأولاد، الذين ذهبوا لنجدة مارك، طعام الإفطار، دخلوا خيامهم، فخلَعوا ملابسهم، وأوَوْا إلى فراشهم، فما كادت رءوسهم تلمس الوسائد حتى راحوا في سُباتٍ عميق، وظلوا كذلك حتى توسَّطَت الشمسُ كبدَ السماء ومالت عن خط الهاجرة، فاستيقظوا، وأخذوا يجيبون على استفسارات زملائهم، وما قاموا به في مغامرتهم الليلية، ثم ذهب الجميع إلى البحر، يَسْبحون ويَمْرحون، فتجدَّد نشاطُهم، ثم عادوا إلى المعسكر فتناولوا الشاي ... ولَمَّا انتهَوا منه أعلن الأستاذ جون بدء مسابقة الطهو، فنَشِطَت كل فرقة، تجمع الحطب وتُوقِد النار، وتجلب الماء، فأسفَرَت المباراة عن فوز فرقة مارك. وبعد إعلان النتيجة، عاد الأولاد جميعًا يتحدثون عن القبض على المهرِّبين، والدور الذي قام به مارك، وما تعرَّض له من خطرٍ كاد يودي بحياته لو تأخَّرَت صَفَّارة نلسون لحظةً واحدة. وهكذا ظل الحديث حول هذه المغامرة بقية اليوم. وأخذ الغلمان يُبالِغون فيما حدث، ويُحاوِل كل واحدٍ اشترك في الإنقاذ أن يُظهِر نفسه بمظهر البطل، وكيف تلقَّى الضربات من المجرمين، وكيف كال لهم أضعاف ما لقي. غير أن مارك ظل طول ذلك الوقت بطل الموقف كله.

استُدعي نلسون ومارك، في صبيحة اليوم التالي، إلى مكتب ناظر المدرسة، فوجدا هناك مأمور القسم ونائبه، الضابط الذي قبض على المهرِّبين. فقال الناظر: «إني لَفخورٌ بكلَيكما. لقد أبديتُما جُرأةً وشجاعةً نادرتَين في القبض على العابثين بالقانون. إن سيادة المأمور يرغب في تدوين ما تعرفانه عن هذا الموضوع. وبعد ذلك ستُطلَبان لأداء الشهادة في المحكمة.»

عندما سمع نائب المأمور، محمود أحمد، أن زومبي هجم على مارك وحاول خنقه، قال إنه يُمكِن اتهامُه بالشروع في القتل، علاوةً على تهمة التهريب. وأوضح لمارك أنه سيُدلي بنفس ما قاله أمام القضاء، وأن القضية ستستغرق وقتًا طويلًا.

ومضَت أيامٌ أقام بعدها الناظر، في نهاية الأسبوع، حفلًا رائعًا تكريمًا لأفراد الكشَّافة الأبطال، الذين رفعوا هامة المدرسة وأعلَوا شأنها. وأقيمت مائدةٌ حافلة بشتى أنواع المأكولات والفواكه الشهية، فأكل جمعة بشراهة حتى كاد النوم يغلبه وهو جالس إلى المائدة، ولكنه حاول جهدَه أن يظل متيقظًا ليُصغي إلى خطبة الناظر، ويسمع منه الثناء عليه. أما مارك، فقد ملَّ المديح؛ إذ كان جل الخطبة ثناءً عليه وإطراءً لبطولته، وعن خطاب الشكر الذي تلقَّاه من محافظ المنطقة، وظهور صوره في الصفحات الأولى من الجرائد الصباحية والمسائية والمجلات، وكيف أنها كانت كلها تتحدَّث عن الدور الذي اضطلع به هو والأستاذ جون ونلسون وبقية فريق الكشَّافة. وبعد أن انتهى الناظر من إلقاء كلمته، قام مارك فشكره بأدب قائلًا إنه لا يستحق كل ذلك المديح؛ لأنه لم يفعل أكثر من الواجب عليه كمواطن.

فقال الناظر: «ليس الثناء والمديح هما كل ما لديَّ هذا المساء!»

– عند ذلك أصغى مارك لما سيقوله الناظر بعد ذلك، فاستطرد الناظر يقول: «تلقَّيتُ اليوم خطابًا من أحد المزارعين الأثرياء المقيمين بقريةٍ قريبة من المدرسة، يقول فيه إنه أعجِب بما قرأه في الصحف أيما إعجاب. وإنه لَمَّا كان هو نفسه كشَّافًا، رأى من واجبه أن يقدِّم جائزةً لزملائه الكشَّافين.»

عندما سمع الأولاد كلمة «جائزة»، اشرَأبَّت أعناقُهم، ولمَعَت عيونهم بالأمل.

فقال الناظر: «أرسل هذا المزارع خمسين جنيهًا لتُنفَق على فرقة الكشَّافة؛ ولهذا سنشتري لكم جميعًا ملابسَ جديدة.»

دوَّى بهو المدرسة بالتصفيق الحاد، وعلا الهُتاف بحياة مارك والأستاذ جون وفرقة الكشافة وذلك الثريِّ العظيم، والناظر الهُمام، ثم قام الأولاد من مقاعدهم، وأخذوا يقفزون فرحًا ويرقصون طربًا.

ولكن كانت هناك مفاجأةٌ أخرى تنتظر مارك؛ فبعد أن انتهت محاكمة زومبي ورفيقَيه ونال كلٌّ منهم الحكم الذي يستحقه، جزاءً وفاقًا لما اقترفت أيديهم … وكان هذا قبل انتهاء العام الدراسي بيومٍ واحد، فجمع الناظر التلاميذ كلهم، ليعلن لهم نبأً سارًّا، فقال: «أعلم أن النبأ الذي سأذيعه عليكم الآن سيهُزُّ نفس كل واحدٍ منكم غبطةً وسرورًا … تعلمون كلكم أنه بفضل مارك تم القبض على المهرِّبين، وأنه خاطر بحياته إلى درجة التضحية؛ ولذلك لم يكتفِ سيادة المحافظ بخطاب الشكر الذي بعَث به إليه؛ فقد أعجِب هو ووجوه المدينة وأعلام الكشَّافة بالدولة كلها، ببطولة مارك، حتى إنهم قرَّروا تكريمه بطريقةٍ أخرى.»

سمع مارك صوتًا خافتًا من بعيد ... فإذا به صوتُ سيارةٍ قادمة نحوه (انظر: عودة إلى الكهف).

توقَّف الناظر عن الكلام لحظة، ثم استَدعَى مارك إلى جانبه عند منصة الخطابة.

ذهب مارك خجلان، فوقف إلى جانب الناظر، وقد غَضَّ من بصره حياءً وتواضُعًا، فقال الناظر بصوتٍ جَهْوري: «أيها الكشَّاف المثالي مارك! لقد أوضحتَ لنا جميعًا كيف نتمسَّك بشعار الكشافة: «كن مستعدًّا». يجب أن يكون الكشَّاف على استعدادٍ دائمًا لكل شيء ... حتى للمهرِّبين. ويسُرني أن أخبِرك بأنك مدعوٌّ لحضور مؤتمر الكشَّافة الدولي كضيف سيادة المحافظ وأصدقائه.»

سَرَت موجةٌ من الدهشة الممزوجة بالإعجاب بين جميع أفراد المدرسة المجتمعين بالفِناء. وأخذوا يصفِّقون ويضربون الأرض بأرجلهم جذلًا. وظلوا كذلك مدةً طويلة، بينما أحَسَّ مارك بالارتباك والفرح يهُزَّان كيانه ويسريان بين أحنائه، فرفَع إصبعَه يطلب الكلمة فلما هدأَت المدرسة، قال: «إن كل عضو في الكشَّافة يستحق نفس هذا الشرف الذي حباني به سيادة المحافظ. وأتمنَّى أن يُسمَح لهم جميعًا بحضور ذلك المؤتمر.»

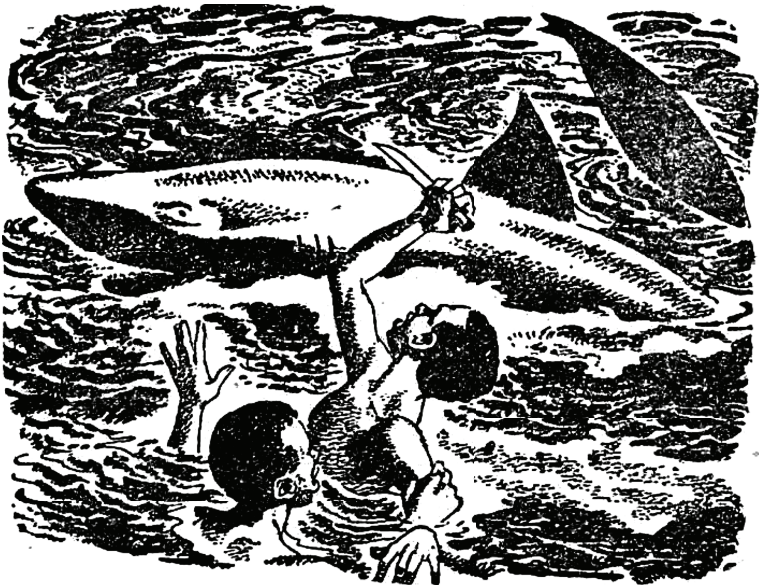

فإذا مارك يرفع يده ... ولمع فيها شيءٌ هوى به على جنب سمكة القرش (انظر: بيترو وسمكة القرش).

هنـــداوي